حيـــاته

أسرته :

على مقربة من القاهرة يتفرع النيل شمالاً إلى فرعين رئيسيين هما : فرع دمياط وفرع رشيد ، وبين الفرعين شقت الترع والقنوات ، وحولها قامت المدن والقرى والكفور.

وتكاد تلك المدن ، وهذه القرى والكفور ، تتشابه فى الشكل والنظام ، ووسائل العيش وحياة أهلها من أبناء الريف المستقرين إلى جوار الأرض منذ أقدم العصور.

فالكفور تتكون من عدة مِنازل من الطوب اللبن ، ودروب ضيقة متعرجة ، وأكوام من القش على أسطح المنازل ، وتبعد كثيراً عن صورة الحضارة الحديثة التى تليق بأبناء هذا العصر.

وفى «كفر دميرة القديم» التابع لمركز «طلخا» بمحافظة الدقهلية ،

عاش الزيات ، فى أسرة من أسر هذا الكفر ، ونشأ بين أهلها نشأة عادية ، يعيش كما يعيشون ، ويتعلم كما كان يتعلم أبناء الكفر على أيدى الفقهاء من أصحاب الكتاتيب أو القارئين من أرباب الحرفة .

« وكفر دميرة » كانت تحيط به من الجهة الغربية أملاك « البدراوى باشا » ومن الجهة الشرقية أملاك الأمير « عمر طوسون » ، وبين الإقطاعيتين الكبيرتين يعيش آلاف الفلاحين فى قراهم وكفورهم تحكمهم ظروف التبعية لهذين الإقطاعيين الكبيرين .

وكان النظام الطبقى السائد بالبلاد فى القرن التاسع عشر ، يجعل من الشعب سادة وأمراء — هم أصحاب الجاه والسلطان والتملك — وأجراء وفلاحين ، وهم العاملون فى الزراعة ، وتحت سيطرة هؤلاء المتحكمين .

ولم تكن دعوات الإصلاح قد عرفت طريقها ، وسط أبناء الريف ، فعاشوا على الرضا يقنعون بالكفاف من العيش ، والهين من العمل ، والقليل من الثقافة ، ومع أن نذر الثورة على التخلف انطلقت على يد رجال الثورة العرابية ودعاة التحرر ، إلا أنها لم تكن تحمل برنامج عمل ، أو مبادئ محددة ترتبط بها ، وجل همها أن تقضى على السيطرة أو تحرر الأمة من ربقة الديون التى وقعت فيها ، أو الامتيازات التى ارتبطت بها ، وظلت القرية على حالها من التخلف الاجتماعى والاقتصادى حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو وبدأت تنظر إليها النظرة الجدية المعتمدة على أسس من الإصلاح والبناء والتجديد .

والقرية على حالها هذا ستجد لها أصداء كبيرة فى كتابات الزيات

تتناول بالنقد والتحليل والدراسة والعلاج كل نواحى القصور فيها . . وفى الصفحات التالية سنرى إلى أى حد أخلص الزيات فى نظرته إلى القرية المصرية وفى توجيهه الدعوات الإصلاحية ببرامجها المتكاملة المدروسة لإصلاحها ، ولعل السر فى اهتمامه بها يرجع إلى نشأته الأولى بين ربوعها وإلى تلك الغصص التى تجرعها فى بدء معرفته ، وصلته بأبناء قريته الأوفياء الذين تأصلت فيهم سمات أبناء الريف فى مختلف أرجاء الوطن .

وفى ذلك الكفر عاش الشيخ حسن ، الفلاح المصرى الذى ينتهى نسبه إلى الشيخ « مجاهد » المدفون فى مقام يحمل اسمه بقرية « نبروه » القريبة من كفر دميرة ، وإلى جانب زوجته الفلاحة المصرية السيدة « غالية » التى ينتهى نسبها إلى عائلة « المدنى » نسبة إلى المدينة المنورة التى هاجر منها جدها الأكبر وعاش فى مصر ، واستقر بمركز طلخا .

وكان الوالد على الرغم من ارتباطه بالأرض ، وفلاحتها ، يعرف القراءة ، والكتابة ، على عكس الكثيرين من أبناء الريف فى ذلك الوقت ، كما كانت الأم تمتاز بالذكاء ، ورجاحة العقل .

وكان « أحمد » الابن الثالث لأبيه ، تكبره أخت شقيقة هى « فاطمة » تزوجت بالقرية ، وعاشت حتى عام ١٩٧١ ، وكانت صلته بها صلة مودة ورعاية طوال حياته أنست بقربه أحياناً ، وتمتعت ببره وحنانه على القرب والبعد .

وأخ شقيق اسمه « عبد الفتاح » كان يعمل بناء ، وتوفى فى ريعان شبابه عن ابنة واحدة .

ويصغره أخوان توأمان هما : «فتح الله» الذى التحق بالأزهر ولم يتم دراسته لمرض أصابه ، ومات غريقاً فى عام ١٩٣٤ ، وحزن عليه الزيات حزناً شديداً ، والتوأم الثانى «حسين» ويعمل مزارعاً ، وهو الآن كبير العائلة ، ويتمتع بنفوذ الأب للجميع ، ويشرف على الناحية الزراعية للأسرة ، يدير شئون الأرض وفلاحتها ، ويجمع غلتها ، ويتولى بنفسه تدبير كل أمر من أمورها .

ورزق حسين بعدد من البنين منهم «محمد» المهندس الزراعى بمحافظة المنصورة و«عبد الفتاح» المشرف المالى لمجلة الأزهر .

وخص «الزيات» ابن أخيه [1] عبد الفتاح بمحبته ورعايته ، ونال قسطاً وفيراً من توجيهه ، وإرشاده ، وملازمته ، والإشراف على تعليمه .

ويرجع ميلاده إلى اليوم الثانى من شهر أبريل سنة ١٨٨٥ ، وفى تلك الفترة عمت البلاد موجات الحركة الوطنية ، وأخذ الوعى القومى يدفع الأسر المتوسطة إلى التعلق بأسباب العلم والاتجاه بأبنائها إلى الأزهر ، كعبة أبناء الشرق — الإسلامى ، وطلاب الدين من شتى أقطاره ولم تكن حال الأبوين على درجة من العسر أو الضنك ، بل هى إلى اليسر أميل ، فعلى الرغم من أن أبناء «كفر دميرة» جميعهم ، لا يملكون من الأرض شيئاً ، إلا أن أسرة الزيات كانت تملك من الأرض ما يساوى «أربعة أفدنة» وتستأجر إلى جانبها ، قطعة من أرض «الوسية» تعيش عليها عيشة وادعة

---

(١) وقد ساعدنى الأستاذ «عبد الفتاح حسين الزيات» فى معرفة الكثير من حياة عمه وصفاته وعلاقاته الأسرية والاجتماعية .

هانئة . تلبى مطالبهم . وتفى بما يحتاجون إليه من ضروريات .

وأرض كفر دميرة كانت فى الأصل إقطاعية ، «ملكها محمد على باشا» إلى «على باشا الشريف» أحد الأتراك ، ثم تتابع على الأرض ملاك كثيرون حتى آل أمرها إلى أسرة «البدراوى باشا» ، وكانت أسرة البدراوى تعطى الفلاح أجراً يومياً زهيداً ، وفداناً يزرعه ليأكل من ريعه ، وتتصرف فيه بعد ذلك كما تشاء ، وعليه أن يلبى كل ما يطلب منه من تبعات .

وكان لوالد الزيات نزوع أدبى ، وكثيراً ما كلفه بأن يقرأ له القصص الشعبى ، ويحثه على مدارسة الأدب وتذوقه ، نرى ذلك فى قوله[1] :

«اشترى أبى لليالى الطاحون الساهرة قصة «سيف بن ذى يزن ، وسيرة عنترة بن شداد ، وألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة» ، وانعقد السامر لسماع المختار منها حول القارئ الممثل قرابة شهر ، وكنت من الصبيان القُلل الذين فضلوا سماع القصص والشعر على سماع الغناء والموسيقى» .

وفى المقال نفسه يشرح كيف قضى سنة بأكملها مع شيخه «الشيخ عطا» يقرأ عليه فيها القصص الشعبية : طوالها وقصارها ، وحفظ قدراً كبيراً من الكلمات والتعابير ، وفهم الاستعارات والتشابيه ، وأحس أن فراغاً فى نفسه قد امتلأ ، ويريد أن يفيض ، وبدأ ينظم الشعر ويكتبه ، أو يكتبه ولا ينظمه لأنه لم يكن يدرى من الشعر إلا بياضاً فى وسطه

(١) من مقال له بعنوان : أول ما عرفت الأدب «فى ضوء الرسالة» ص ١ ط ١٩٦٣ ويقصد بليالى الطاحون ، ليالى الإعداد لزفاف العروس . . احتفالاً بزواج أخيه الأكبر .

وقافية فى آخره . . ثم يضيف [1] :

« وصدق أبى – رحمه الله – أنى شاعر ، فأهدى إلىّ ديوان المتنبى ، فكان أول كتاب أقتنيه ، وأول شاعر أحببته » .

ومن هذين الخبرين نرى مدى تذوق الأب للأدب ، ومدى حرصه على أن يكون ابنه أديباً عالماً ، له فى مجال الأدب ذكر وخبر .

أما الأم فقد أثرت فيه بخلقها ، ورجاحة عقلها ، كانت غاية فى الذكاء ، راوية محدثة ، عن الأسرة والبلدة [2] .

وكان إخوته جميعاً يشتغلون بالزراعة ، ما عدا واحداً (هو الشيخ فتح الله) ، درس بالأزهر ، وتوفى قبل أن يتم تعليمه ، أما أحمد فإنه الوحيد من بين إخوته الذى أتم تعليمه وكتبت له الشهرة والمكانة .

ووسط هذه الأسرة نشأ الزيات تحوطه رعاية الأب ، وحنان الأم ، وطفولة تنبئ عن مستقبل باسم ، وحظ موفور .

وعاش فى القرية حتى بلغ الثالثة عشرة من عمره ، خالط أهلها ، وارتسمت فى ذاكرته صور شتى لكل ركن فيها ، ولم ينس صلاته بأطفالها أو رجالها أو شيوخها ، حتى أخريات أيامه ، وعمرت صفحات الرسالة بالعديد من المقالات الضافية عن حال القرية ، ووسائل إصلاحها ، وأساليب العيش فيها .

قال عن الشيخ حسن معلمه الأول ، والشيخ عطا معلمه الثانى ،

---

(١) ص ٤ من المقال السابق « فى ضوء الرسالة » .

(٢) ص ١٦٩ من كتاب « قمم أدبية » للدكتورة نعمات فؤاد .

وعن العمدة صديقه الوفى حتى الممات وعن الشيخ عبد القادر مأذون القرية ، كما ظلت علاقته قوية صادقة بأحد أعيانها الشيخ عبد الحميد فودة فقال عن كل هؤلاء ، وعن أطفال القرية الذين حرموا نعيم الحياة ، وذاقوا بأساءها مع المكافحين المحرومين .

وظل متعلقاً بالقرية إليها يغدو ويروح ، وعنها يكتب ويدافع ، ولما انتقل إلى القاهرة طالباً للعلم فى الأزهر استقبل أهل القرية فى داره ، وعكف على قضاء حاجياتهم ، ومساعدتهم فيما ينزل بهم من مكروه ، أو يحزبهم من أمر . وفى عام ١٩٠٢ تزوج من إحدى قريباته « السيدة زكية » بعد حب طاهر عفيف ، ورزقت بطفلة سماها « سعاد » عاشت أحد عشر شهراً ثم ماتت ، وفارق الزوجة على الرغم منه ، وإن ظلت صورتها حية فى ضميره ، وكانت تناديه يا خالى تقديراً واحتراماً له على عادة أهل الريف فى ذلك الزمان .

ثم اقترن بسيدة أخرى فى عام ١٩٢٦ هى السيدة « رتيبة حسن إسماعيل » من مدينة « بلقاس » ورزق منها بابنه « رجاء » الذى توفى عقب عودته من العراق فامتلأ قلبه حسرة عليه ، وقال راثياً له فى تقديم المجلد الأول من وحى الرسالة : إلى روحك اللطيفة العذبة يا ولدى « رجاء » أقدم هذا الكتاب :

فلولاك ما أنشئت الرسالة ، ولولا الرسالة ما أنشأت هذه الفصول

« والدك الحزين إلى يوم يلقاك » .

وفى عام ١٩٣٤ ولد له « علاء » الذى رأى فيه صورة رجاء ، وعده

عوضاً عنه ولم يرزق بولد آخر غيره .

وعاصر علاء مجلة الرسالة ، ورجالاتها ، وتربى فى أحضان الأدب والفن وأظهر تفوقاً فى دراسته العلمية ، فاتجه إلى الطب وبرز فيه ، ونال أعلى درجاته العلمية «الدكتوراه» من قسم الأمراض الباطنية بكلية طب قصر العينى سنة ١٩٦٦ وصار مدرساً بكلية الطب له بحوثه ودراساته العلمية التى يشهد له بها أساتذته وتلاميذه .

ولم يتدخل الأب فى توجيه الابن هذه الوجهة العلمية البحتة ، وإنما تركه ينمى ميوله ويستجيب لرغائبه ، يذكى فيه الحماسة الأدبية ، ويرقب عن كثب ميله العلمى ، وكثيراً ما كان يختلف الابن إلى المجلة ينهل من مقالاتها ، أو يغذى أسلوبه بألوان المعرفة التى حفلت بها ، وأحياناً يشهد ندوات الرسالة عصر كل يوم اثنين ، لذلك رق أسلوبه ، ونما ذوقه ، وتأثر بالأدب ، وإن لم يخض غماره .

ومر الزيات فى نشأته بمراحل ثلاث ، كان لها أثرها البعيد فى حياته ، وشكلت أسلوبه الأدبى وكونت شخصيته ، وجعلت منه صاحب الرسالة :

المرحلة الأولى : نشأته بالقرية حتى سن الثالثة عشرة .

المرحلة الثانية : طلبه العلم فى الأزهر من عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٠٧ .

المرحلة الثالثة : التحاقه بالجامعة الأهلية ، وبعدها بمدرسة الحقوق الفرنسية من سنة ١٩٠٨ حتى ١٩١٢ ومن سنة ١٩٢٢ حتى ١٩٢٥ .

وسأتعرض لهذه المراحل الثلاث بالدراسة والتحليل فى الصفحات التالية ، أما ما أريد أن أضيفه إلى الحديث عن الأسرة وهو استقراره بمصر منذ فارق القرية حتى نهاية الحياة فأقول :

أول سكن له بمصر فى منزل إبراهيم السرجانى بشارع حسن الأكبر قريباً من منزل الشيخ مصطفى عبد الرازق بحى عابدين ، ومنه انتقل إلى حى السيدة زينب فى شارع بنى الأزرق .

وطوال هذه الفترة وبعدها لم تنقطع صلته بأصدقائه فى الأزهر أو فى الريف خاصة الدكتور طه حسين والشيخ محمود زناتى ، فكان يدعوهما إلى منزله ، وأحياناً ينامان عنده إذا تأخر بهما الليل .

وسافر إلى العراق عام ١٩٢٩ لمدة عامين ، صحب فيها زوجته الثانية ثم عاد إلى القرية بعد العامين ليترك زوجته عند أهلها وتضع له ابنه « رجاء » .

ورجع إلى العراق وحده فى عام ١٩٣١ ومكث هناك عشرة أشهر ، بشر فيها بمولد ابنه « رجاء » وألف كتابه « العراق كما رأيته » ، ولكن القدر لم يسعده فى الاثنين ، فمات الابن فى سنواته الأولى ، وضاع الكتاب فى لهب النار وحزن عليهما حزناً شديداً .

وبعد العودة من العراق للمرة الثانية استأجر مسكناً بحى شبرا ، ثم انتقل منه إلى عابدين فى عمارة قريبة من شارع حسن الأكبر ، وفيها توفى ابنه « رجاء » فتشاءم منها ، وأجر مسكناً فى منزل (الجسطينى) أحد

رجال الخاصة الملكية وبدأ يؤسس للرسالة[1] داراً تتكون من ثلاثة أدوار : الدور الأرضى للمطبعة والثانى لإدارة المجلة والندوة والضيافة ، والثالث لسكناه مع أسرته التى انضم إليها الفرد الثالث «علاء» . وفى عام ١٩٥٢ ابتاع أرضاً بالمنيل ، وبنى عليها دارته «فيلا» فى شارع قايتباى رقم ١٤ وانتقل إليها حتى عام وفاته ١٩٦٨ ، وكان يفكر فى بيعها قبل وفاته لينتقل إلى حى هادئ تغمره الخضرة والطبيعة الحانية – بعد أن تغير حال المنيل وساكنوه – ولكن القدر لم يسعفه .

وبعد وفاته باعها الدكتور «علاء» وانتقل إلى حى المعادى فى دارة «فيلا» واسعة جميلة تنعم بالراحة والهدوء والجمال التى كان ينشدها الأب[2]

أما عن حال الأسرة الاقتصادى فيدل عليه ما وصل إليه العيش من رغد ويسر ، فقد بدأ الزيات يشق طريقه فى الحياة ، والأسرة لا تملك أكثر من أربعة أفدنة فى زمام «كفر دميرة» وبمجهوده العلمى والأدبى ، وصل حد الملكية إلى ٨٥ فداناً ، منها عشرون فداناً فى زمام يبعد عن الكفر حوالى ثلاثة كيلومترات ناحية بلدة «كفور العرب» وبقية الأرض «٦٥ فداناً فى زمام كفر دميرة» اشتراها الزيات بعرق الجبين ، والكفاح الدائب ، والاقتصاد المعتدل فى التحصيل والإنفاق ، وبين هذه الأفدنة ابتنى «فيلا» مسكناً خاصًّا من ثلاثة أدوار ، بنى أولها فى سنة ١٩٤٨ ثم

(١) شارع حمودة المقاول رقم ٣ بعابدين – بالجهة الجنوبية من سراى عابدين .

(٢) شارع رقم ١٥ فيلا رقم ٢٣ بالمعادى .

الدورين الثانى والثالث فى عام ١٩٥٠ ، وأحاطها بحديقة فيحاء وأدخل إليها الكهرباء والماء النقى .

وأحب الأوقات لديه تلك التى كان يقضيها فى الريف ، وفى هذا المسكن المعد على أحسن الطرز ، والذى لم يدخر وسعاً فى تأثيثه أو تجميله .

وكان بيته فى « منيل الروضة » بالقاهرة ، وبيته الثانى « فى كفر دميرة » أشبه بفندق يعمر دائماً بأبناء الريف : أصحاب الحاجات ، وزوار القاهرة أو القاصدين للأستاذ فى العسر واليسر يلتمسون عنده المطالب ، أو يعرضون عليه الأمر الذى أهمهم .

وكل من يقصده يجد فى داره المطعم والمشرب والراحة وقضاء المصلحة بل آثر بعض أهل الريف بتربيته – خاصة فى طلب العلم – فتبنى بنت أخت زوجته وأشرف على تعليمها ؛ وكان كالأب لابن أخى العمدة حتى أتم دراسته وأحاط برعايته ابن ابن أخته ، وأشرف على تعليم أولاد أخيه الأخير . . وكان لكل هؤلاء ولغيرهم الأب والأستاذ والرائد .

وكان بالنسبة لأسرته كلها كالأب ؛ إليه يرجع الأمر ، وكالمركز تدور حوله كل أحوالها وقراره نافذ ، وحكمه مستجاب ، يحكمونه فى أفراحهم وأتراحهم ويلتمسون رأيه فى كل صغيرة أوكبيرة ، ولا يقضون من دونه فى أمر ، وهيبته مقررة فى نفوس الجميع لا يخرجون على طاعته ، ولا يعصون له أمراً .

وأهل القرية – القريب والبعيد – ينظرون إليه على أنه العون

والمرجع ، ويسعون إليه – كما عودهم – لحل مشكلاتهم ، أو لقضاء مصالحهم ، وكان لا يخيب ظنهم ، يصدقهم النصح ، ويبذل الجهد من غير ملق أو رياء .

وآلت ملكية الأرض بعد وفاته إلى زوجته وإلى ابنه منها الدكتور علاء . . . وفى حياة الزيات الأسرية روابط إنسانية أطلقها بروحه بين أبناء القرية فكانوا له أهلاً ، وبين أبناء الأسرة فكان لهم أباً ، وفى طرق معيشته ، وأسلوب حياته نرى أن الأيام أعطته ما تمنى ، أنعمت عليه بالأسرة الحانية ، وبالابن المرجو ، وبالمال الوفير ، والعيش الرضى ، وأضفت عليه من صفات الخير ما أحله المكان المرموق بين كتاب العربية ورواداها .

فعاش بين جيله برسالة ، وعاش بعد وفاته بذكرى ، وقدم للأدب والنقد نماذج استحقت منا هذه الدراسة ، ونتاجاً حافلاً استوجب أن أعقد له هذه الفصول .

نشأته :

البيئة التى نما وترعرع فيها الزيات ، وترددت أصداؤها فى أدبه ، إنما هى «القرية» بطابعها المصرى الأصيل ، وإلى جوارها «الأزهر» بتاريخه العريق ، وسماته البارزة ، ومعالمه الواضحة .

ومن هذين الرافدين استقى الزيات ثقافته الأولى ، ونظرته الفاحصة لكل ما أحاط به من ألوان ومباهج ، ففى القرية عرف الشيخ حسن معلمه الأول ، وعرف أصدقاءه وأترابه وطرق الغرام شغاف قلبه الرقيق ،

وارتسمت صورة القرية فى ذهنه بحاراتها وأكواخها وطرقاتها وأهلها وعلاقاتهم ، وأهله وذكرياتهم . ولما كبرت به السن لم ينس القرية بل أفرد لها فى أدبه مكاناً خصباً .

وفى الأزهر عرف زميل صباه الدكتور طه حسين ، ورفيق الشباب الشيخ محمود زناتى . . وعرف ما فى الأزهر من محاسن ومآثر ، وما فيه من مثالب ومآخذ ، وتتلمذ على يد أساتذة فضلاء حفظ لهم الجميل ، وأخلص لهم الود ، فأعلى ذكرهم ، وكانت له معهم مواقف مشهودة ، وكثيراً ما كتب عن الأزهر مطالباً بالإصلاح ، أو داعياً إلى أن يحتل مكانته اللائقة به فى وقت كانت الدراسة به متعثرة متخلفة .

وله إلى جانب هذين الرافدين منابع أخرى ، ولكنها تعد من المسارب الجانبية التى كان لها أثر ضئيل فى توجيه أدبه ، اللهم إلا إذا استثنينا دراسته للغة الفرنسية والتى يعتبرها لغته الثانية بعد العربية ، وتلك السنوات التى قضاها معلماً بين مدارس الفرير ومدرسة المعلمين العليا ببغداد والجامعة الأمريكية بالقاهرة .

فى القرية حفظ القرآن على يد معلمه الأول الشيخ حسن ، وعن معلمه هذا كتب مقالاً بعنوان «سيدنا الشيخ حسن» [1] يصف فيه الشيخ وصفاً دقيقاً يجمع فيه بين الهيئة التى يرى عليها ، وبين الخلق الذى طبع عليه . كما يصور مكانته لديه فيقول :

«كانت لى الحظوة عند سيدنا من دون أولاد الكتاب ، لأنى كنت

---

(١) ص ١٩٠ ج ٤ من وحى الرسالة .

أسمع له البردة ، وأكتب له الحجاب العالى ، وأرسم الخاتم الدقيق على ركب الأولاد عصر الخميس حتى يستحموا فى النهر يوم الجمعة . . »

وبرغم ذلك فإن العلاقة بينه وبين معلمه كانت تقوم على الخوف والرهبة ، لأنه إذا غضب من تلميذه ينهال عليه ضرباً وتأنيباً ، ولذلك لم يحب الزيات الكتاب ، وكان أسعد أيامه يوم يموت واحد من أهل القرية فينشغل الشيخ فى تشييع جنازته ويستريح هو والتلاميذ من بطشه وحدته .

وكان الشيخ حسن ضعيف البصر فكان يعتمد على تلميذه فى كتابة الأحجبة كما كان يقرأ له القصائد الدينية وأولاها بردة البوصيرى .

ولما أتم حفظ القرآن وتجويده فى كتاب الشيخ حسن ، أرسله أبوه إلى بلدة « الربع » بمحافظة الدقهلية ، ليجود القرآن ويتعلم القراءات السبع عند فقيه آخر « هو الشيخ عطا » وقد أتم ذلك فى عام .

وفى أيامه الأولى بالقرية أصدر مجلة عنوانها « الانتقاد » وموضوعها « مدح العمدة وذم خصومه بالمقال والقصيدة والزجل » ومنها يقول [1] :

« كنت أكتب نسخة واحدة بيدى ، وأقرؤها للمشتركين بنفسى ، ثم توقفت بانتقالى إلى القاهرة عند عددها الرابع » .

فى القرية أفاد من حفظ القرآن وتجويده ، ومن تعلم القراءات والأدعية والأذكار ، وقرأ كثيراً من القصص الشعبية التى كونت ملكته الأدبية .

---

(١) ص ٥ فى ضوء الرسالة بعنوان « أول ما عرفت الأدب » .

ولعل أدق صورة رسمها للقرية التى تفتحت عليها مواهبه تبدو فى قوله [1] :

« كومة من سباخ الأرض ، قامت عليها أكواخ متلاصقة من اللبن ، سقفوها بالخشب والقصب ، وحملوها بالعلف والحطب ، وجملوها بشرفات من الروث اليابس ، ثم جعلوا ظهرها مراحيض للحاجة . . » حتى يقول « ثم جمعوا بين قاعة الإنسان وزريبة الحيوان فى فناء واحد ، فالحديث يمتزج بالخوار ، والمضغ يشتبه بالاجترار ، والرجل والثور والمرأة والبقرة ، والطفل والعجل ، يعيشون سواسية فى شيوعية عجز عن تحقيق حلمها (الروس) لا يؤديك إلى هذه الدويرات العمى مسلك واسع ، ولا طريق مشروع ، وإنما هى طوائف طوائف ، تفتحت كل طائفة منها على زقاق ضيق غير نافذ ، ولن نستطيع الدخول فى هذا الزقاق إلا من الطريق الدائر حول القرية . بل يشق البلدة منفذ صاعد هابط منحدر متعرج وعر ، ولكنه بين الفجوات والحفر ، يكون أشبه بصراط الحق بين مزالق الفتنة » .

تصوير دقيق يتناول الدور وما احتوت عليه من إنس وحيوان ، والطرقات وما حفلت به من مناظر تقذى العين ، وتؤذى صاحب الضمير الحى . .

هذا التصوير للبيئة كثيراً ما نراه فى كتابات الزيات ، فهو يصف القرية فى صباحها ومسائها فى يومها وفى أمسها وفى غدها . . فى الأناسى

(١) ص ٢١٥ من ج ١ وحى الرسالة .

وما انطووا عليه ، فى البيوت وما اشتملت عليه .

يصفها فى عيدها ومأتمها ، فى ربيعها وخريفها ، فى سعادتها وأتراحها ، يدق فى وصفه حتى ليبدو التعبير فى صورة رسم حى نابض ، ويحلل ويناقش العلل والأوجاع حتى ليصل بك إلى حد الإثارة والحسرة . .

فهو ابن بار لقريته ، متحمس لها ، مخلص فى وداده ، يشاطر أهلها أسقامهم ، ويوالى الكتابة عنها حتى آخر رمق فى حياته .

ونظرة سريعة إلى العناوين التى ورد فيها ذكر القرية نستبين فيها مدى حبه لها . . من ذلك «القرية بين أمس واليوم» ، «عيد الأضحى» ، «إلى القرية يابك» ، «جمعية نهضة القرى» «إلى بعض الكبراء» ، «الخريف فى الريف» ، «ليالى الحصاد» ، «ليت للأوقاف عيناً» ، «بل ليت للأوقاف قلباً» ، «يا إنسان . . أين الإحسان ؟» ، «بين الفقير والغنى» ، «كيف نعالج الفقر ؟» ، «فلاحون وأمراء» ، «هل لأغنيائنا وطن ؟» ، «منهاج لوزارة الشئون الاجتماعية» ، «هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير» ؟ ، و«يوم الفقير» ، «مشكلة الرغيف» ، «صحة الفقير تعويض من ثروة الغنى» ، و«كيف عالج الإسلام الفقر ؟» . وهناك كثير غيرها عددت منها ولكنى لا أعددها .

انطبعت البيئة فى ذهنه ، واستجاب لها ، وعمل على إصلاح ما فيها من أخطاء ، وتجنب ما يساورها من آلام ، ولما جاءت ثورة الثالث والعشرين من يوليو رأى فيها بريق أمل ، فكتب يستحث القادة ، ويرسم العلاج للأدواء التى استعصى حلها .

أخلاقه وسماته :

فى كتاب « هذا مذهبى » (١) الذى أصدرته دار الهلال فى العدد ٤٨ رجب ١٣٧٤ – مارس ١٩٥٥ من سلسلة كتاب الهلال ، كتب الزيات فصلا خاصًّا به عنوانه : « الاستقامة والوضوح » فى هذا الجزء من الكتاب يحدد الزيات مذهبه فى الحياة ، وسماته التى عرف بها ، وقدم للكتاب وأشرف على إصداره الدكتور طه حسين (٢). وفى مقدمته يقول :

(سترى فيه معرضاً شائقاً للآراء والمذاهب فى مصاحبة الأيام ، ولقاء الأحداث ، والنفوذ من المشكلات) وساهمت فى إخراجه مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، تمشياً منها مع وحدة عصرنا الحديث وخصائص حضارته ، وهو دراسة تدفع القراء إلى التعرف على هذه المذاهب التى تهدف إلى الخير وإلى سعادة النفس ، واطمئنان الفكر ، وتعين على احتمال الحياة ، ومواجهة المشكلات والصعاب ، ويحتوى على ثلاثة أقسام :

١ – القسم الأول : لرجال العصر الحديث .

٢ – القسم الثانى : لرجال التاريخ .

٣ – القسم الثالث : لمجموعة من رجال الغرب .

---

(١) ص ٦١ من الكتاب .

(٢) واشترك معه فى الترجمة لطائفة من أهل الرأى الغربى (الدكتور عبد العزيز القوصى والدكتور أحمد فؤاد الأهوانى والدكتور على عزت الأنصارى والأستاذان مصطفى حسن ومحمد عبد الغنى حسن) .

وقد أفصح كل منهم عن مذهبه فى الحياة ، وأسلوبه الذى انتهى إليه فى كفاحه واختيار أهدافه .

ونشر الزيات مرة أخرى هذا الفصل فى وحى الرسالة (المجلد الرابع)[1] وقدم له بمقدمة توضح الغرض قائلا :

« لذلك كان من الخير للبادئين من الناشئين من الشباب أن يطيلوا النظر فى مذاهب المنتهين من الشيوخ ، فإن ذهاب الشباب مذهب الناجحين الناجين أجدى عليهم من اعتساف الطريق ، أو اختلاط الحيرة ، ودونك مذهبى » .

فهو يقدمه عبرة للشباب حتى يكتب لهم النجاح ، ويرتادوا سبيل النجاة ، وحتى لا تلتوى بهم الطريق أو يحاروا فى مساربها . .

ويظهر من نشر هذا الفصل من حياة الزيات مرتين بل أكثر أنه جمع خلاصة حكمه وتجاربه ، وأفصح عن خبيئة نفسه ، وقدم صورة حية متكاملة لكل ما يختلج فى ضميره من أحاسيس ، وما يجيش بخاطره من معان .

لذلك سأورد هذا المقال بنصه كما قاله الزيات ، وأعلق عليه بأحداث من حياته ضارباً الأمثلة مما وقع تحت يدى أو وصل إليه علمى من دراسة وقراءة وبحث . راجياً أن أحدد معالم الشخصية ، وواضعاً لها فى الإطار الأمثل :

---

(١) ص ٦٩ من الكتاب .

قال الزيات [1] :

مذهبي فى الحياة يتميز بالاستقامة والوضوح ، وبفضل هاتين الميزتين بلغت الغاية التى قصدتها منذ وعيت .

لم أبلغ عليه الثراء الضخم ، ولا الجاه العريض ، ولكنى بلغت عليه العيش الرخى ، والبال الرضى ، والذكر الحسن ، والسعادة الحق أقرب إلى الرضا والسكينة منها إلى المال والنصب .

حرصت على أن يكون مذهبى مستقيماً ، حتى كانت العقبة الضخمة تعترض فأقف دونها طويلا ، أفتتها بمعولى الصغير حصاة حصاة إلى أن تذل وتزول ، ولو أنى انحرفت عنها كثيراً أو قليلا ذات اليمين أو ذات الشمال لخلصت منها ، وبلغت الغاية فى أقل زمن وأيسر جهد .

ولكننى كنت أستريح بطبيعتى إلى الحديث المأثور « عليكم بالجادة ، ودعوا البنيات » يريد الرسول الكريم بالجادة وسط الطريق وهو الاعتدال ، وبالبنيات الطرق الصغار التى تتشعب من الجادة وهى فطنة الزيغ والضلال والتعدى والهلكة .

* * *

وحرصت على أن يكون مذهبى واضحاً ، حتى كانت المشكلة الصعبة تعرض ، فيكون حلها يسيراً بشىء من النفاق ، وقليل من المصانعة ، ولكنى كنت أنفر من ذلك كله ، وأحاول أن أعالجها بالصدق والصبر والصراحة ، ولكن هذه الندوب ستظل على الزمن مثاراً للذة من

(١) ص ١١٦ بعنوان (مذهبى فى الحياة) جـ ٤ ط ١٩٦٦ وحى الرسالة .

لذات الروح تشيع منها العزة والحرية والكرامة .

نهج لى هذا المذهب وألزمنى إياه طبع حر مسالم ، فأنا منذ حملت نصيبى من عبء الحياة أحاول أن أستقل فى عملى عن إرادة الغير ، وأستغنى بقدرتى عن معونة الناس ، فلم أضع يدى ولا عنقى فى أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد صعود العليق على أكتاف الطوال من ذوى السلطان والحكم ، وإنما اضطربت فى مجالى الحيوى طليقاً من كل قيد إلا قيد الخلق ، مستقلا من كل عون إلا عون الله ، بذلك سلمت نفسى من رذائل الوظيفة فلا جبن ولا رياء ولا ملق ، وبرئت حياتى من نقائص التبعية فلا خضوع ولا إغضاء ولا ذلة .

من مذهبى أن أدع الخلق للخالق فلا أنتقد ولا أعترض ، ولا أمد عينى وراء الحجب ، ولا أرهف أذنى خلف الجدر ، ولا أدس أنفى بين الوجوه ، ولا أزحم بمنكبى من يمشى عن يمينى أو عن يسارى مادام الطريق مفتوحاً أمامى إلى الوجه الذى أقصده ، لذلك عشت لين الجانب سليم الصدر ، لا أدخل فى جدل ولا أشترك فى مراء ، ولا ألح فى منافسة ، وكان من جدوى ذلك علىّ أن الله وقانى عذاب الجسد ، وكفانى شر العداوة ، وجعل ما بينى وبين الناس قائماً على المجاملة والمساهلة والود .

ومن مذهبى أن أسقط الماضى من حساب الحاضر فور انقطاعه ، فلا أحزن على ما فاتنى فيه ولا آلم لما ساءنى منه ، وتصيبنى الخسارة فلا أجزع ، إنما أطرحها من ربح الصحة والنجاح والأمن ثم أدبر أمرى

على اعتبار أنها لم تكن . ويسوؤنى الصديق فلا أبتئس ، إنما أحمل إساءته على حيوانيته وأثرته ، فإذا عاد إلى الإحسان لا أعاتبه على ما كان . ولا أذكره بما فعل وأى نفع أرتجيه من تعكير ما راق ، وإشعال ما خمد . إنى لا أصادق إلا من أحب والذة التى أجدها فى حب الإنسان ، تعوضنى من الألم الذى أجده فى لؤم الحيوان .

وللإيثار جانب عظيم من مذهبى فى الحياة ، فأنا أوثر صاحبى على نفسى فى المجلس والحديث والهوى ، وقد أوثره أحياناً بالمنفعة ، لأن شعورى بأن أدخل السرور عليه ، أو أجلب السعادة إليه ، أجلّ فى نفسى من شعورى بأن أتصدر فى المجلس ، أو أنفرد بالكلام ، أو أتقلب فى الإرادة ، أو أختص بالفائدة .

ومن مذهبى أن أكره الظهور ، وأمقت الدعوى وأجتنب الفضول ، فأنا أعيش فى عزلة وأعمل فى صمت ، وأمشى فى قصد ، وهذه الخلال قد تعوق عن الوصول فى عصر كهذا العصر . أعماله تظاهر ، وأقواله هتاف ، ووسائله إعلان ، وغاياته شهوة ، ولكن الذين يندفعون إلى الأمام بهذه الدوافع لايلبثون أن يفقدوا الأجنحة المصنوعة ، والمحركات المستعارة فيقفوا حتى يفوتهم أولئك الذين يسيرون هوناً على أقدامهم الطبيعية ، أو على مراكبهم الخاصة ، من غير أن يناهم خزى ، أو يمسهم لغوب ، من أجل ذلك لم أدخل فى حزب ، ولم أقف على منصة ، ولم أظهر فى جريدة .

على أننى نلت شرف الجهاد الوطنى فى الثورتين المصريتين ، فكنت فى

الأولى جنديًّا مجهولا أكتب المنشورات السرية للطلبة وأنا مدرس فى « المدرسة الإعدادية » وكنت فى الأخرى وطنيًّا معروفاً أوقظ الوعى القومى وألهب الشعور الوطنى وأنا محرر فى مجلة « الرسالة » ومع ذلك قلما عرفنى زعيم ، أو رآنى حاكم ، ومعرفة الزعيم ورؤية الحاكم كانت يومئذ من أحاديث المنى ، وهواجس الأحلام ، ولكن أكثر الأمانى ضلال ، وأكثر الأحلام وهم .

ومن مذهبى أن أجعل الجمال سبيلا إلى الخير ، ودليلا على الحق ، فأنا أتوخاه فى اللباس والطعام والمسكن والأثاث ، كما أتوخاه فى النفس والفن والطبيعة .

والمذهب طريق تذهب فيه ، فإذا لم يكن له من الجمال شجر يحنوا على جوانبه بالظل ، وزهر ينسم على أفيائه بالعطر ، وحاد يرفه على سالكيه بالنغم ، كانت الحياة بأساء من غير نعيم ، وصحراء من غير واحة .

هذا مذهبى سننته على هدى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، وسلكته منذ ابتدأت حياتى وسأسلكه إلى أن تنتهى ، ولو كان فى الإمكان أن أورثه ولدى لسعدت به حيًّا وميتاً ، ورضيت عنه دنيا وأخرى . . » .

* * *

جعل الزيات عنوان المقال : الاستقامة والوضوح . وهاتان الصفتان هما أبرز ما يتميز به من صفات ، فلم يؤثر عنه فى كتاباته بل فى سلوكه

الاجتماعى أى شيء من فحش القول أو التواء الطريق ، ودائماً يسير فى الخط المستقيم حتى عرف بذلك واشتهر بين أهله وأقاربه من أبناء الريف وزملائه فى العمل وفى الحياة .

وكان واضح القصد كما نستشف ذلك من كتاباته الإصلاحية ، ودفاعه عن الإسلام والعروبة والمجتمع ، وعلاجه لأدوائه ، ومطابقة سره لجهره ، وبفضل هاتين الميزتين بلغ الغاية التى إليها قصد .

لم ينل من حياته ثراء ضخماً ، بل جمع ثروة طيبة تضمن له الحد الذى قصده الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » فلم يترك أهله فى فقر أو إعسار ، ولما ضاقت الدنيا بالرسالة توقف عن إصدارها حتى لا تبدد البقية الباقية من ثروته ، وعمل مديراً لمجلة الأزهر فترة ولمجلة الرسالة الجديدة فترة أخرى حتى لا يتوقف عن الكفاح ، أو ينضب معينه من المال الضرورى لمواصلة العيش .

وكان معتدلا حتى فى صحته ، فلا ينفق ماله أو وقته أو جهده إلا بحساب ، ويروى عن بعض عمال مطبعته أنهم اتهموه بالبخل ، ولكنى رجعت إلى عدد منهم للتأكد من صحة هذه الرواية ، وأخيراً وجدت فيها تجنياً عليه ، وما رماه بها إلا من كان طامعاً فى ماله أو فى أخذ مالا يستحق منه ، وكل ما عرف عنه فى هذا الصدد أنه لا ينفق القرش فى غير موضعه .

وكان يدون مذكراته أولا فأولا ، لايترك صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها ، ولا يغالى فيما يذكر ، أو يقصر عن الحقيقة ، اللهم إلا إذا

استطال عليه الأسلوب ، أو جنحت به العبارة ، أما وقته فكان ينفقه بأدق حساب . .

يعمل فى الرسالة محرراً ومصححاً ومديراً ومنظماً ومديراً للبيع ، وحاسباً ومطلعاً ومنقحاً لأبوابها ، ومجيباً على رسائل قرائها . . (يعرف كل ما يحيط به من الألف إلى الياء) .

وذلك دأبه أيام كان مدرساً بمدارس الفرير أو الجامعة الأمريكية أو العراق ، ومجلدات وحى الرسالة بتواريخها ، ومقالاتها ، وذكرياتها ، وأبوابها تعد مرجعاً كاملا ، وسجلا حافلا فيه الكثير عن حياته ومذهبه .

يلتزم الصدق والصبر والصراحة فى كل علاقاته ، فإذا عرضت له مشكلة ألح على حلها بالصبر ، والتزم الصدق ، وعالجها بالصراحة .

ففى شدة المرض ، وفى أحلك الأزمات ، وفى أصعب المواقف يبتسم ، لا يداور ولا ينافق ولا يداهن . . وما وقفاته من اليهود بمصر أو المستعمرين ببلاد العرب أو الإقطاعيين ببلدته ، أو الموظفين فى مكاتبهم ، أو المتأدبين أو المتشاعرين أو المتسلقين من الناس أو المشعوذين على اختلاف ألوانهم وسماتهم . . مواقفه هذه تنطق كلها بصراحته وصبره وصدقه .

وألزمته هذه الصفات أيضاً :

« حب الحرية والمسالمة والاستقلال فى العمل ، والاعتماد على النفس » . . فعزف عن الوظائف الحكومية ، وامتنع عن الزلفى ، وسار فى حياته حرًّا بلا قيود إلا قيد الخلق . . والمعين الأكبر له هو الله .

ويظهر استمداده لهذا العون فى كتاباته عن الدين بأعياده ومذاهبه ورجاله وأزهره وأيامه المفضلة ، ومناسباته المقدسة ، وأماكنه الطاهرة . . فى كل خاطرة ، وفى كل لفتة ، وفى كل مناسبة يسأل الله العون ، ويعمل عمل الواثق بنفسه ، المؤمن بربه ، المخلص لمبدئه .

كما أثر عنه احترامه للنفس ، وللغير[1] ، لايتدخل إلا إذا دعى ، عملا بالحكمة التى التزمها فى حياته « يدع الخلق للخالق » .

كما كان أنيقاً فى ملبسه ، وفى كتاباته ، وفى خطه ، وفى كل مظهر من مظاهر حياته لا يرى متبذلا ، أو متصرفاً بغير نظام .

وعماد حياته التدبير ، ولا يبخل بالعطاء ، فإذا طلب منه أحد أمراً « فمن الصعب عليه الرفض ، كما أنه ليس من السهل أن يبذل » [2].

يمقت الكذب ويكره النفاق ، ويثق فيمن يصطفيه ، وإذا انتزع الثقة من أحد فليس من السهل أن يردها ، وإذا تطاول عليه أحد ، أو أقذع فى نقده يرى من الأفضل ألا يرد عليه لأنه عف اللسان « كما وقف ممن نقده على صفحات مجلة لواء الإسلام » .

وحبه للأدب ملك عليه كل حياته ، « من القرية عاش له ، ومات فى سبيله » فقد توفى ، وفى يده مقال لافتتاحية مجلة الأزهر ، ومنذ أمسك

---

(١) دخول (أل) على كلمة غير تعد خطأ من الكاتب .

(٢) على لسان أحد أقربائه . « ويقرر أحد أصدقائه أنه كان بخيلاً حريصاً على المال يدخر لاقتناء الأرض فى قريته ، وكان كثير من كتاب الرسالة يكتبون من غير أجر ، حتى أن أعداد الرسالة لا تصل إليهم ، وإنما يشترونها » .

القلم لم يتركه إلا فى نهاية الحياة .

وكان يعتمد على نفسه فى كل أعماله ، لا يكل إلى غيره إلا ما يراه تكملة أو نافلة فنجاح الرسالة لم يتم إلا بجهد الزيات ، وتفانيه فى سبيلها ؛ أشرف عليها إشراف الخبير ، وأحاط بكل سطر فيها إحاطة العليم .

وكان معتداً بنفسه وبرأيه ؛ يكره المقاطعة فى الحديث ، لايتدخل فى أمر إلا إذا بدا له أن يتدخل فيه ، وأحياناً يغضب لمخالفته ، أو يثور لمقاطعته لأنه لا يقول بغير إيمان ، ولا يحكم إلا بدراسة ورأى .

وصفاته هذه لازمته طوال الحياة لم تشذ واحدة منها ، وكان واضحاً وضوح النهار لذلك لم يتعرض لعنت أو مذلة ، ولم يسلك إلى العنف طريقاً فعاش مع الناس على الرضا ؛ ومع الحياة على الخير والشر .

وقليلا ما يستخفه الطرب لأن الوقار حفظ له طابعاً لا يغيره ، فى الطفولة الباكرة كان يجلس فى المندرة ، وحوله أهله وجيرانه يقرأ لهم بصوت مسموع أهم الأنباء ، أو أحسن القصص . . فيستميل قلوبهم ، ويجذب أسماعهم ، وينال منهم الإعجاب والاستحسان ، ولما أنشأ الرسالة اتخذ نفس المكانة فى ندوتها ، وعندما تقدمت به الحياة فى المجتمع وفى الجامعة ، وفى المنتديات أو المؤتمرات ، كانت كل حركاته يغلفها الوقار ، ويحكمها الاحترام ، وفى بعض الأحيان (ونادراً) يخرجه الموقف عن سمته فيهتز ، وينطلق ، ويعود شابًّا بلا قيود أو حدود[1].

---

(١) من ذلك ما رواه ابن أخيه أنه دخل معه ذات مرة سينما «كايرو» فرأى منه انطلاقاً غريباً لم يألفه من قبل .

وقد حاول بعض المهاجمين له أن يتهموه بالنفاق . من ذلك ما قاله الأستاذ محمود عبد المجيد فى مجلة لواء الإسلام [1] ردًّا على ما ورد فى مقاله « أمة التوحيد تتوخد » [2] :

« يا صاحب الرسالة : أرضيت لنفسك أن تعيش أيامك فى الحياة متلوناً متزلفاً يوماً لذا وغداً لذاكا ، وأن تلقى الله بعد ذلك بوجه صفيق يتنكر لدينه ، ويتنقص رسوله ، ويكتب التاريخ عنه ما كتب عن ذلك الشاعر الذى مدح المعز لدين الله وجعله هو وحده الواحد القهار ، وهلا اتقيت الله فى مجلة الأزهر فحفظت لعلماء الإسلام كرامتهم ، وهلا اتقيت الله فى رجال الثورة فحّضتهم النصح — والدين النصيحة — ورجال الحكم فى كل زمن فى حاجة إلى من يأمرهم وينصحهم لا إلى من يغشهم ويملحهم .

يا مدير مجلة الأزهر : لقد بعت دينك بدنيا غيرك وقامرت بقصيدتك فى سوق المدح فكنت الخاسر . . . » .

وكان هذا الاتهام ردًّا على ما نشره الزيات فى مقاله السالف عن القصيدة « وأنها قد تضعف أو تحول » .

وما قاله الزيات فى معرض الحديث عن أمة التوحيد هو :

---

(١) ص ٥٢٥ العدد الثامن السنة السابعة عشرة ٢٠ أغسطس ١٩٦٣ تحت عنوان (خطاب مفتوح) .

(٢) نشر فى مجلة الأزهر الجزء الأول من هذا العام غرة ربيع الثانى ١٣٨٣ وضمنه كتابه فى ضوء الرسالة ص ٣٤٧ .

«إن الوحدة السياسية المحمدية كانت كلية عامة لأنها قامت على العقيدة ، ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول ، وأن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة لأنها قامت على السلطان والسلطان يعتريه الوهن فيزول ، أما الوحدة الناصرية المقترحة فباقية نامية لأنها تجديد للوحدة المحمدية ، فهى باشتراكيتها وحريتها وديمقراطيتها مظهر للإسلام مطبقاً بالفعل منفذاً بالقانون ، مؤيداً بالسلطان ، والاشتراكية فى الرزق والحرية فى الرأى والديمقراطية فى الحكم ضمان دائم للوحدة . . . »

وما قاله الزيات ليس فيه نفاق أو تلون وتزلف ، ولم يبع دينه بدنيا غيره ، ولم يقامر بعقيدته فى دنيا المدح : لأنه يقرر حقيقة واقعة أيدها التاريخ وسجلها الزمن .

« فالوحدة » التى أسسها النبى محمد ﷺ كانت كلية قامت على العقيدة ، واعترى هذه الوحدة الضعف والتحول فى عصور متعددة منذ العصر الأموى حتى عصرنا الحاضر . وصلاح الدين الأيوبى كانت وحدته جزئية . واستندت إلى السلطان ، فأصابها الوهن والزوال ، أما وحدتنا الحديثة فى عصر عبد الناصر فهى وحدة مقترحة تقوم على دعائم تكفل لها التطبيق والتنفيذ والتأييد .

كأنه يريد أن يقول : إننا أخذنا من الماضى دروساً وعبراً ، وأرسينا دعائم قامت لتكون ضماناً للوحدة ، وحتى لا تنتكس ، أو يعتريها ما اعترى الوحدة الإسلامية فى عصورها الأولى .

والنفاق منعدم فى مقال الزيات ، لأنه لا يرجو به مثوبة ، ولا يطمع

فى جاه ، وإنما هو مقرر لأبعاد ما جاش فى نفسه من خواطر حينما أرسيت دعائم هذه الوحدة .

وفى جزء آخر من المقال يقول تعقيباً على الكلام السابق :

« بعد قرابة ألف سنة من تمزق الوحدة العربية بين الترك والفرس والمغول والكرد والجركس والأسبان والعثمانيين والفرنسيين والإنجليز والطليان يعود التراث المحمدى إلى أهله ومعه ما ضيع الجهل والفقر والانحلال من كلمة التوحيد ، وتوحيد الكلمة . . ويشعر ثمانون مليوناً من العرب يعيشون بين المحيط والخليج بأن لهم كياناً طبيعياً تميز بالجنس واللغة والدين والتاريخ والموطن والمجد والثقافة . . . » .

يشير إلى تمزق الوحدة فى مختلف العصور ، وعلى أيدى الأعداء ، ثم ينسب تمزق هذه الوحدة إلى الجهل والفقر والانحلال من كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وتوحيد الكلمة (كلمة الله هى العليا) . . وبعد كل هذا يصح أن نرميه بالنفاق ، والزلفى ، والمدح الكاذب ! .

وأرى أن الأستاذ محمود عبد المجيد مبالغ فى نقده ، لم ينظر إلى المقال جملة ، بل أخذ منه جملة واحدة أدار حولها صوت النكير ، وسط النقد .

وفى العدد نفسه يرميه أحد القراء بالنفاق طول حياته قائلا [1] :

« لقد عاش الزيات هكذا طول حياته يكتب ما يروج ، وينشر ما يجلب له النعمة والعافية ، وحسبه أنه ظفر فى عهد فاروق بلقب (صاحب العزة) وظفر فى هذا العهد بأكرم جائزة ، وفى مجلة الأزهر

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ٨ السنة ١٧ العدد السالف .

لايزال (يستأثر فيستغل) فيتقاضى منها مائة جنيه ليخرج عدد ذى القعدة ضمن ذى الحجة وليصدر عدد المحرم فى شهر صفر ، ويكتب فيها كلاماً إنشائيًّا يمجه كل من كان له ذوق سليم » .

وفى مقدمة المقال يقول : « طبيعة النفاق يبدو أنها متأصلة فى الأستاذ الزيات نما عليها وشب وشاخ فيها وهرم » .

وجانب المغالاة والتجنى واضح فى النقد لأن صاحبه يعرض بالزيات فى رزقه وفى كل كتاباته ، وفى مكسبه الذى يأتيه من عمله ، ويزرى بأسلوبه حتى إن من كان له ذوق سليم يمجه ويلفظه .

ولقد شهد للزيات الكثيرون من رجالات الفكر والأدب (١)، ومقالاته فى وحى الرسالة تشهد له لا عليه ، والألقاب التى كانت تخلع فى الماضى على المبرزين من القوم إنما اصطنعها أصحاب السياسة لتكون رسولهم إلى الشعب ، والزيات هاجم القصر ورجاله ، والحكام وأذنابهم ، والإقطاعيين وأعوانهم ، ولى عودة إلى الإفاضة فى هذه الناحية عند الحديث عن أدبه الثورى .

وكل ما أريد أن أحققه هو أن صفة النفاق بعيدة كل البعد عن طبع الزيات ، أما المجاملات فدائماً تكون مرعية حرصاً على وحدة الكلمة ، ومجاملات الكاتب تبدو فى إيثار السلامة (٢)، والوصول إلى الهدف دون

---

(١) منهم الأستاذ محمود شلتوت الذى دافع عنه فى جلسات المجلس الأعلى للأزهر .

(٢) وربما لجأ إلى ذلك حتى لا يجابه أحداً ، أو يجلب عليه عداء ، وفى ذلك كتمان للرأى الصريح وبعد عن سمات المصلح الجرىء .

أن يثير الأعاصير من حوله أو يقيم الموانع فى طريقه ، وكل همه أن يعلى حق الكلمة ، وأن يصلح بلا صخب أو ضجة ، ويعمل فى تيار هادئ ، وبعزم لا يلين .

لذلك عاش كما قال : « لين الجانب ، سليم الصدر ، لا أدخل فى جدل ، ولا أشترك فى مراء ، ولا ألج فى مناقشة ، وكان من جدوى ذلك علىّ أن الله وقانى عذاب الحسد وكفانى شر العداوة ، وجعل ما بينى وبين الناس قائماً على المجاملة والمساهلة والود » .

وقلّت لذلك – أيضاً – معاركه الأدبية ، ومقالاته النقدية ، ومال إلى المجاملة والود فكثر أصدقاؤه ، وقل أعداؤه .

ولعل فى التهجم عليه ما يشير إلى عداوة شخصية بينه وبين القائل ، وإلا فلماذا الطعن على المرتب والمنصب والجاه ، وكلها أمور يكسبها الإنسان بجده وكده لا إرثاً عن أبيه وجده ؟

وهو لا يصادق إلا من يحب ، ولذلك قل أصدقاؤه ، ويجد اللذة فى حب الصديق حتى ولو تحمل العناء والألم ، وينسى الماضى بما فيه من آلام وأوصاب ، فلا يحزن على ما فاته فيه . .

وربما يكون هذا القول على علاته مبالغاً فيه ، لأنه حزن على بعض أصدقائه فى القرية وظل يذكرهم ويأسى لحالهم ، كما حزن حزناً مبرحاً على ولده (رجاء) ولولا حزنه عليه لما أنشأ الرسالة ، ولما كتب هذه الفصول من وحيها .

كما نرى له شهقة أو زفرة تتصاعد كثيراً فى مقدمات مقالاته ، أو

مناسبات كتاباته ، وكيف ينسى الإنسان فصولا من حياة ألمت به ، وحفرت فى النفس مجاريها ، إننى أرى فى هذا القول مبالغة وتناقضاً .

ولذلك أقرر أن الزيات التزم الهدوء فى حياته اعتماداً على ما فى النفس من علل وآلام وأوجاع هذبتها ودربتها فتعلمت الاحتمال ، والمكابرة ، والمصابرة . . كعادة أهل الريف فى إصرارهم وابتساماتهم التى يطلقونها أمام الأزمات والهزائم .

والإيثار طبع فيه ؛ يؤثر صاحبه فى المجلس والحديث والهوى . . يؤثره فى المجلس لأنه يحب الصمت ويقبل على الناس ، إقبال المحب المتطلع ، وفى الحديث لأن عبارته طلية (١)، ويقبل بقلبه وعقله على من يبادله الحديث ، وفى الهوى لأنه يدرك ما لدى الآخرين من تطلعات ، وما يرضيهم أو يسوؤهم ، لذلك آثر صديقه على نفسه ، ويبدو ذلك جليًّا فى تعاطفه مع كل من تحدث عنه أو إليه ؛ وفى الاحتفاظ بالذكريات لمدة طويلة وكأنها خيط مرسوم ينظر فى أوله ما يراه فى آخره .

وهو يكره الظهور ، ويميل إلى الانطواء ، ويعيش فى عزلة ويعمل فى صمت .

فى علاقاته على اختلافها ، وفى سرحاته مع تعددها ، وفى أمانيه مع قلتها أو كثرتها لا يعمد إلى طنطنة أو جلبة ، حتى فى الثورة كان محرر منشوراتها السرية — ربما إيثاراً للسلامة — ولكن ذلك طبعه ، وحتى فى حمل السلاح عندما فتش أثناء الثورة (ثورة ١٩١٩) . وحتى فى حديثه

---

(١) ص ٥٠٠ من المجلد الأول / وحى الرسالة .

إلى نورا وإلى عقيلة وإلى أم محبوبته الأولى ، وفى عزوفه عن الكتابة فى الصحف السيارة ، وربما يكتب المقال ويرمز إلى اسمه ، أو يؤلف القصة ، ويخترع لها مؤلفاً .

وفى أخريات أيامه ، لجأ إلى العزلة التامة ، علاجاً للمرض ، وفراراً من إلحاح الناس ، وإمعانهم فى حب ذواتهم .

ولم يشأ أن يكون متظاهراً أو معلناً عن نفسه ، حتى لا يفقد الأجنحة المصنوعة والمحركات المستعارة ، فاعتمد على نفسه بعد ربه .

ولم يقصر على شرف الجهاد الوطنى فاشترك فى الثورتين : عام ١٩١٩ محرراً للمنشورات السرية للثورة وفى عام ١٩٥٢ يوقظ الوعى ويلهب الشعور حتى قبل أن تقوم الثورة

ويؤثر الجمال فى اللباس والطعام والمسكن والأثاث .

كان – رحمه الله – أنيقاً فى ملبسه الأزهرى والإفرنجى ، شهد بذلك أهله وأصدقاؤه ، وفى طعامه حتى قيل : إنه لم يأكل إلا فى جماعة وعلى مائدة وفى هيئة تبعث على الرضا وتفتح الشهية ولو كان الطعام خشناً هزيلا .

وفى مسكنه يختار الحى الهادئ المنسق ، سكن فى السيدة زينب[1] وفى شبرا وعابدين وفى المنيل وتنقل بين الريف والحضر ، وبين بلاد العروبة وأوربا ، ورسم صوراً حية لكل المناطق التى سكن فيها وأنس

(١) كانت هذه الأحياء هادئة فى الماضى ، على عكس ما هى عليه الآن .

إليها ، ومن مجموع هذه الرسوم يتمثل لنا عشقه للجمال وحرصه عليه ، والتزامه الحياة المثالية الجميلة .

وهو فى آخر مقاله ينسج خيالا يجمل به مذهبه فيجعل منه :

طريقاً تحف به الأشجار والظلال ، وللأشجار زهر وعطر ، وفى الطريق حاد يرفه بالنغم يسعد به السالكين .

طريقاً مفروشاً بالورود والأنغام والظلال ؛ وتعطره الأنفاس وتؤنسه أنغام الحادى الذى يهتدى به .

وربما يرمز بالحادى إلى الزوجة العطوف ؛ أو النفس الرضية السعيدة أو الابن الذى يجدد الأمل ، ويؤنس وحشة الحياة .

ويؤكد المعنى الأخير قوله : « ولو كان فى الإمكان أن أورثه ولدى لسعدت به حيًّا وميتاً ، ورضيت عنه دنيا وأخرى » فهو يطمح أن يسير ولده على نهجه ، وأن يتخذ منه سبيلا ليضمن قلبه السعادة فى الدنيا والآخرة .

خلاصة ما حدده الزيات من صفات وخلال التزم نفسه بها ، وكانت فطرته التى فطره الله عليها هى :

١ – الاستقامة

٢ – الوضوح .

٣ – عيش رضى وذكر حسن .

٤ – الاعتدال .

٥ – الصدق .

٦ – الصبر .

٧ – الصراحة .

٨ – المسالمة .

٩ – الاستقلال بلا جبن أو رياء أو ملق .

١٠– لين الجانب .

١١– سلامة الصدر .

١٢– الرضا .

١٣– الإيثار .

١٤– كراهية الظهور .

١٥– الجهاد فى الثورتين .

١٦– حب الجمال .

١٧– عمل الخير .

١٨– الميل إلى الحق .

وهذه الصفات تشيع فى كتاباته ، وألزمته الكثير من الجهد والوقت والمال والصحة والتزم بها منذ كان صبيًّا يافعاً إلى أن صار أديباً جهيراً : فى القرية وفى الأزهر أو الجامعة فى التدريس أو الصحافة فى البيت أو الشارع أو على صفحات الرسالة .

ولو أضيف إلى هذه الصفات ما اشتهر به من : النظام والإحسان ، والعبادة وحسن الصلة بالله وبالناس ، وما أثر عنه من نفس صافية تنظر إلى المستقبل فى شفافية ورضا ، وإلى الواقع بما تنطوى عليه من إيمان .

والاستقرار العائلى الذى أحاط به فى زواجه الأول والثانى ؛ والاستقرار النفسى الذى يشيع الرضا فى النفس وفيمن حوله . . .

كل هذه السمات تشترك فى الدلالة على أن الزيات كان مصلحاً اجتماعيًّا ، ورائداً إنسانيًّا ، وقائداً يهدى السالكين فى مجالات الأدب ، والفكر ، والفن .

أما صفاته الجسدية فتبدو من خلال رسمه : الوجه المستدير الممتلئ ، والجبهة العريضة الصافية ، والعينين الحالمتين اللتين أعياهما الكلال والرمد والجسم الربعة الذى ليس بالطويل أو القصير ، فيه انحناءة الجلال والانكباب على الكتاب ، وخطواته تتمثل فيها الرزانة والوقار ، ولفتاته تنم عن مهابة واحترام ، وبسمته تفتر عن ثغر سمح ، وقلب راض وإذا تكلم فبصوت خفيض ، وقلما يثور أو يهدد ، وفكاهته عملية علمية تجمع بين الرياضة الروحية والعبرة الأدبية لا يستخفه الطرب ولا تدفعه الشهوة .

يقبل عليك بقلبه ولسانه وسمعه وبصره ، يتجنب الشبهات ، ويبعد عن مزالق الشر ، لا يغامر ولا يقامر ، حليم ودود ، ولكن جهده ضعيف لاعتلال صحته منذ الصغر[1] .

عذب الحديث ، ينطق باللفظ العربى الأصيل من مخارجه ، دقيق ، أمين السر والجهر ، يعرف للقلم قداسته وللكلمة فعلها فى النفس وفى الأمة .

وقد جمعت هذه الصفات من ثنايا كتاباته ، أو مما رواه عنه أصحابه

(١) استقيت هذه الصفات من أحاديث أهله وخلانه وابنه الدكتور علاء .

ومريدوه وأهله ، ولا داعى للإطالة بذكر الشواهد فهى أكثر من أن تحصى فى مجلد ، وهى منبثة فى صفحات مؤلفاته ، بل فى كل عبارة من عباراته ، ومن أراد الرجوع إليها فلن يعجز عن الاهتداء إلى طلبته بأيسر جهد ، وفى أقصر وقت .

* * *

والزيات يتمتع بعد ذلك بأسلوب عذب ، عرف به ، وأثر عنه ، وتعلم على يديه خيرة شبابنا ، وطاف به أرجاء الوطن العربى ، وكان هذا الأسلوب محل إعجاب وتقدير لدى كثير من أدبائنا ونقادنا وتلاميذنا كما كان موضع نقد وهجوم لدى بعضهم ، هذا الأسلوب على الرغم مما أحاط به من تأييد أو تفنيد يعتبر ميزة من ميزاته ، وحسنة من حسناته ، شهد لها الأقربون والمستشرقون والمعجبون بفنه وذوقه .

وسأخصص باباً مستقلا لأدب الكاتب لأنه مناط دراستى ، وعماد بحثى والهدف الأكبر من هذه الدراسة .

ويهمنى الآن أن أقرر بأن صفات الزيات فى معظمها انعكست على أسلوبه وأثرت فيه .

فجاء الأسلوب منمقاً موجزاً ، مترسلا ، موسيقيًّا ، مترابط المعنى واضح القصد ، مجدد العبارة والخيال ، وتفصيل ذلك كله فيما يلى من فصول .

وصدقت العبارة الحكيمة « الأسلوب هو الرجل » فمن أراد أن يعرف الزيات فليقرأ له ، ومن أراد أن يقرأ للزيات فليدرس حياته وليعرف

ما انطبع عليه من سمات .

ومن نافلة القول أن أؤكد بأنه غزل فى طبعه ، وفى مشاعره ، وفى تناول الحياة بنعيمها أو بؤسها ، وبهذا الغزل عرف دخائل النفوس وعالج ناشزها .

وفى مقالاته مواقف مع المرض ، والهجرة والحب ، والجمال ، والربيع والأمومة والطفولة والوظيفة ، والسياسة ، والملهى والمسجد والطبيعة والنفس الإنسانية . . . كلها دلائل ناطقة بالتحليل والعمق والاستقصاء ، ليس فيها شىء من التقليد أو الترديد أو التجويف أو ضيق الأفق كما يدعى بعض الناقدين . . وفيها فوق ذلك نفسه وصفاته وسجاياه .

* * *

طلب العلم :

غادر الزيات القرية فى الثانية عشرة من عمره ، أو الثالثة عشرة . . غادرها إلى القاهرة طلباً للعلم فى الأزهر . .

وللأزهر مع الزيات ذكريات حفرت فى نفسه أخاديد لا تمحوها الأيام ، ولا تطويها السنون ، فقد دخله طالباً ، وخرج منه مفصولا ، ثم كتب عنه مصلحاً مجدداً ، وعاد إليه كاتباً ينهض بمجلته ، ويدافع عن رسالته .

التحق بالأزهر قبل بلوغه الثالثة عشرة (عام ١٨٩٧ تقريباً) ، وفى الأزهر عرف عنه ميله إلى الأدب ، حتى لقد كانت دراسته للأدب

وعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وبيان أكثر من جانب الفقه وعلوم الدين .

وقد مرّ بنا ماعرف عنه من ميل إلى الأدب وقراءة القصص الشعبى ، وكثرة حفظه للأشعار حتى تهيأ له أن يقول الشعر محاكاة لما فى القصص منه . واشتهر فى بلدته بالشاعر ، حتى إن العمدة كان يطلب إليه أن يقول الشعر .

ولم يكن الأدب فى ذلك الوقت يدرس فى الأزهر ، وكانت الدراسة فيه مقصورة على علوم اللغة والفقه ، وكلها عقلية أو نقلية .

وأثناء الدراسة بالأزهر انعقدت صلات المودة بينه وبين صديقيه محمود حسن زناتى وطه حسين . . وفى ذلك يقول[1] .

« كنا ثلاثة ألفت بيننا وحدة الطبع والهوى والسن : فالطبع مرح فكه ، والهوى درس الأدب وقرض الشعر ، والسن فتية لا تجاوز السادسة عشرة ، وكان طه قاعدة المثلث ومحمود وأنا ضلعيه القائمين ، أو كان المبرد صاحب الكامل ، قلب الطائر ، والزمخشرى صاحب الكشاف ، وثعلب : صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ، وتلك كانت ألقابنا على الترتيب (المبرد طه حسين ، والزمخشرى محمود ، وثعلب الزيات) لقب بها بعضنا بعضاً لنزعة فكرية أو فنية كان ينزعها كل منا فى نظر أخويه .

ووجه الشبه بيننا وبين المثلث أن وجودنا كان كوجوده ، لايتصور فى الذهن ولا فى الخارج إلا بأضلاعه الثلاثة ، على أى شكل يكون ، وأما

---

(١) من وحى الرسالة جـ ٣ ص ١٦٥ فى رثائه لزميله المرحوم محمود حسن زناتى .

وجه الشبه بيننا وبين الطائر فإن حياتنا كانت كحياته : تردّد إلى كل روضة ، وتغريد على كل شجرة ، وتحليق فى كل جو ، كنا ننتقل من حلقة العلم إلى درس الأدب ، ومن مجلس الشعر إلى دار الكتب ، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة ، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف نعرض عليها ما كنا نسميه يومئذ شعراً ، ثم ننتهى إلى دار أحدنا فنتدارس ما حصلنا من علم ، ونتذاكر ما حفظنا من أدب ، ونتناور بما سمعنا أو رأينا من سخف ، فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة ، فتعيد ما وعت لا تخرم منه حرفاً ، فتصحح أو تستكمل أو تستعيد (١).

كان كل منا يحب أخويه حبًّا غلب على كل شىء ، فإذا اجتمعنا عكفنا على هوى واحد هو الأدب ، وإذا افترقنا نزعنا إلى هوى واحد هو نحن الثلاثة ، وكنا نعشق الكتب ، فلم ندع فى الأدب كتاباً مطبوعاً ولا مخطوطاً إلا قرأناه أو قلبناه ، والمكتبة العربية كانت يومئذ بالنسبة إلينا

---

(١) من ذلك ما رواه لى الدكتور طه حسين عندما زرته طالباً منه أن يمدنى بما لديه من ذكريات عن صديق شبابه (الزيات) قال :

كان الزيات شاعراً يقرض الشعر فى المناسبات المختلفة ، وذات مرة ضحك علىّ أنا ومحمود زناتى بسبب معركة قامت بينى وبينه فقال لى معاتباً :

يا صاحبى كنت عندى بين قلبى وكبدى
والآن أصبحت منى هل تسمعن بالمعيدى !

كما كانت له أشعار نشر بعضها فى الجريدة وفى مصر الفتاة وفى جريدة الشيخ جاويش ، وقال كثيراً فى مولد الإمام الحسين .

(الكتبخانة المصرية) وكان محمود أشدنا غراماً بالمكتبات والمخطوطات ، فكنا حين ننصرف – طه وأنا – لدراسة الفرنسية ، ينصرف هو إلى مكتبة الأتراك ، أو إلى مكتبة الأزهر ، أو إلى دكاكين الوراقين » .

عرفت محموداً فى درس النحو ، وعرفت طه فى درس الأدب ، وكان بين المعرفتين شهران أو ثلاثة كنت أحضر درس النحو الذى يلقيه الشيخ عبد الله دراز فى مسجد محمد بك أبى الذهب ، وكانت لى بين رفاق شهرة بصنع الكلام الموزون المقفى ، فكان هذا يطلب مدحة فى باشا ، وذاك يطلب تهنئة لعمدة ، وذلك يريد مرثية فى قريب ، وعلم ذلك محمود فجاءنى ذات يوم وأنا فى الدرس يشكو إلىّ أنه صنع تاريخاً لمولود فى شطر ، ولكنه يحتاج إلى واحد ليتم به عدد السنين ١٩٠٤ فنظرت فى التاريخ فأعيانى أن أجد هذا الواحد فقلت له :

اكتب الشطر الأول هكذا : « وبالفرد استعنت لكى أؤرخ » والفرد معناه الله ومعناه الواحد المطلوب ، فضعه بين قوسين واحسبه واحداً ، أما جزم المضارع فللضرورة ، فسر محمود بهذا الحل سروراً عظيماً ، وصحبنى منذ ذلك اليوم لانكاد نفترق ، حتى أثلثنا بطه فى درس المرصفى ، فتوثقت بيننا عرى المودة ، وتصادقنا على المحبوب والمكروه وتصافينا على القرب والبعد . . . ومُلى كل منا أخويه خمسا وأربعين سنة تصدع فيها الشمل وافترق الطريق . .

كنا ثلاثة فأصبحنا اثنين طه حسين وأنا ، أما محمود زناتى فقد سبقنا

إلى الغاية التى لابد أن يبلغها كل حى[1]، مات محمود وبكاه طه فى الأهرام.. بكاء على عهد مضى لن يعود وعلى صديق مضى لن يعوض.

ويختم مرثيته بقوله :

« لقد ابتدأنا فى الرواق العباسى ، ومعنا الشباب والأمل ومحمود[2] ثم انتهينا إلى مجمع اللغة العربية ومعنا الشيخوخة والذكرى ولا شىء ».

تلك كانت سيرة الزيات فى أيامه الأولى بالأزهر ؛ اشتهر الزيات فى النثر ، حين اشتهر طه حسين بالشعر ، ومحمود زناتى بالرواية.

وقد حضر الزيات الشيخ محمد عبده حين كان يدرس فى الرواق العباسى ، وهو أول من أدخل درس الأدب فى الأزهر بظاهره رجلان هما الشيخ محمد محمود الشنقيطى والشيخ سيد المرصفى.

وأخذ الزيات بسحر بلاغته ، ودرس على الشنقيطى المعلقات ، وعلى المرصفى المفضل للزمخشرى ، والحماسة لأبى تمام والكامل للمبرد.

أما قصة الطرد من الأزهر والعودة إليه فقد أشار إليها الزيات فى مقال له عن أحمد لطفى السيد وملخصها : (نقلا عن الدكتور طه حسين) :

كان الشيخ المرصفى يدرس الكامل للمبرد ، وفيه خطبة للحجاج منها

(١) كانت وفاته فى ديسمبر ١٩٤٩.

(٢) كان الشيخ زناتى أكثر من صديقه طه حسين تعلقاً وارتباطاً بالزيات لدرجة أنهما هاجرا معاً إلى المنصورة مع أسرتيهما ؛ ومكثا بها « ثلاثة أشهر » خلال فترة الحرب العالمية الثانية فى ضيافة الزيات : « كما روت السيدة زوجته ».

قوله : « ماذا يطوفون إنما يطوفون برمة وأعواد » قاصداً قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالبقيع . وارتفعت أصوات تنادى بكفر الحجاج لأن قوله فيه تطاول على مقام الرسول . . وتميز من بينها أصوات « الزيات وطه حسين والزناتى » قائلين « لا داعى للرمى بالكفر ، وإن أحداً لا يمارى فى أن الرسول بشر ، فالحجاج لم يكفر ، وإنما أساء الأدب » .

سمع هذا القول بعض الطلبة ، وتلقفه خصومهم وأشاعوا أن الثلاثة كفروا ووافقوا الحجاج فيما كفرته من أجله الكثرة .

وقامت ضجة ارتفعت على أثرها شكوى إلى شيخ الأزهر « الشيخ حسونة النواوى » وعقد لهم مجلس لمحاكمتهم مكون من الشيخ حسونة والشيخ محمد بخيت مفتى الديار فى ذلك الحين ، وأصدر المجلس حكمه بالقطع (أى شطب أسمائهم من سجلات الأزهر) وطردهم .

وكانوا يحضرون درس البلاغة على الشيخ « عبد الحكيم عطا » من أبناء المنيا فى كتاب السعد التفتازانى . . فأقبل عليهم أحد الفراشين وقال :

— تفضلوا كلموا الشيخ حسونة . فوجدناه جمع مجلس الإدارة ، ومن حوله الشبان الذين قدموا الشكوى ضدنا فرددنا عليهم ، ولكن الشيخ حسونة قال :

أولا : ستخرجون من الأزهر . . ونادى رضوان كبير الفراشين . وتولى طردنا .

وثانياً : طلب الشيخ سيد المرصفى وطلب منه قراءة المغنى لابن

هشام . وكان درس الكامل فى الضحى . . ونقله الشيخ حسونة إلى صحن الأزهر .

ويحكى الزيات المحاولات التى بذلها للعودة إلى الأزهر ، ومنها اتصاله هو وزميلاه بالمرحوم أحمد لطفى السيد فيقول [1] .

وكان أول يوم اتصلت فيه أسبابى بالفقيد العظيم يوم زرته فى مكتبه بالجريدة أنا وصديقاى طه حسين ومحمود الزناتى ، نشكو إليه فصلنا من الأزهر ، ونحن فى السنة النهائية من الدراسة فيه ، لخلاف ثار بين الطلاب فى درس أستاذنا المرصفى حول فقرة من خطبة الحجاج [2]. . . فلما دخلنا عليه هش بنا ، وبش لنا ، وسمع منا ، وسمعنا منه ، ثم قال بلهجته الرزينة : إن الأمر أيسر من ذلك ، ورفع سماعة التليفون وقال للشيخ حسونة النواوى :

إن عندى ثلاثة من طلاب الأزهر فصلتموهم لرأى رأوه ، ولعل من الخير ألا تقتلوا فى الشباب حرية الرأى ، مادامت لا تخالف أصلا من أصول العقيدة ، ولا نصًّا من نصوص الأحكام ، وسأله أن يلغى قرار الفصل » .

وعاد الثلاثة إلى الأزهر وبعد أن ترك الشيخ حسونة الأزهر عاد الشيخ سيد إلى قراءة الأدب ولكنه قرأ الأمالى ، ولم يقرأ الكامل .

ولم يجد الثلاثة بدًّا من ترك الأزهر ، بعد أن أيقنوا أن لا بقاء

---

(١) فى ضوء الرسالة ص ٣٤٣ .

(٢) سبقت الإشارة إليها نقلاً عن الدكتور طه حسين .

ولا جدوى لهم فيه ؛ وخرجوا إلى الشارع بغير هدف محدد أو واضح ، فكانوا يختلفون إلى مسجد الحسين تارة ، وحيناً إلى مسجد المؤيد . . ويقضون سحابة النهار فى دار الكتب يدرسون ، ويقرءون : الأمالى والأغانى والحماسة ودواوين الشعراء الفحول وغير هذا من أمهات الكتب .

وكان الثلاثة يتطارحون الشعر ، وربما قال بعضهم شعراً فى الآخر ، وكان زناتى يحب الغناء ولا يسلم من معاتبة الآخرين . . وأحياناً يقول متغزلا فى بعض الأشخاص بأسمائهم . . فينهاه الزيات وطه حسين .

وأعرض الزيات عندما كبر عن قول الشعر جرياً وراء لقمة العيش ، وعزوفاً عن أوهام الشعراء ومباذلهم .

وفى عام ١٩٠٨ أنشئت الجامعة الأهلية ، فسارع الثلاثة إلى الالتحاق بها ، وكانت الدراسة بها مسائية تستغرق ساعتين من الخامسة حتى السابعة ، ولم تغير كثيراً من علاقاتهم أو دراساتهم الصباحية بدار الكتب .

وتتلمذوا على مشاهير المستشرقين أمثال نيللينو وجويدى ، وكانت الجامعة فى أول عهدها تعتمد على الكثير من المستشرقين للتدريس بها .

وأثناء التحاق الزيات بالجامعة الأهلية مساء ، كان يعمل مدرساً للغة العربية بمدرسة الفرير بالخرنفش ، إذ كان الشيخ سيد المرصفى – أستاذه فى الأزهر – صديقاً لمستشرق فرنسى كان مفتشاً عامًّا للغة العربية بالمدارس الفرنسية وكان هذا المستشرق اسمه الفرير (بلاج) وكان دائماً

يطلب إلى الشيخ المرصفى أن يختار له الأكفاء للتدريس بالمدارس الفرنسية .

وفى سنة ١٩٠٧ اختار له الشيخ المرصفى تلميذه الذى حاز إعجابه وثقته : «أحمد حسن الزيات» وتوطدت الصلة بين بلاج والزيات ، وكان يترجم حكايات لافونتين ، ويعهد إلى الزيات لينظمها له شعراً .

وأثمرت هذه الصلة نتاجاً لغويًّا وأدبيًّا سجله الزيات فى كتب ظلت تدرس بمدارس الفرير مدة من الزمان . وسأعود إلى الحديث عن هذا النتاج فيما يلى من الفصول .

واستمر الزيات يتلقى العلم بالجامعة الأهلية من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٢ إلى جانب قيامه بالتدريس فى الفصول الإعدادية بمدارس الفرير (بالخرنفش) ومع ذلك يتعلم اللغة الفرنسية لتعينه على دراسته بالجامعة ، وأخيراً حصل على إجازة الليسانس فى الآداب من الجامعة الأهلية — المصرية القديمة — عام ١٩١٢ .

وفى عام ١٩١٧ أحب اللغة الفرنسية حبًّا ملك عليه فؤاده ، وأعتقد أنه ما دام محبًّا للاطلاع فلن تكفيه لغة واحدة هى لغته الأم ، ولابد من أن يضيف إليها لغة حية توفر له الروائع العالمية فى كل اللغات ، وكانت الفرنسية نافذته إلى العالم الغربى . قال فى مقدمة (فى ضوء الرسالة)[1] :

---

(١) ص هـ من المقدمة .

« الأدب العالمى الذى تأثرت به بعد الأدب العربى ، هو الأدب الفرنسى ، وذلك لأسباب أهمها أن اللغة الفرنسية هى لغتى الثانية ، فمن الطبيعى أن أقرأ بها ، وأن أبدأ بأدبها » .

وفى سنة ١٩٢٢ دخل مدرسة الحقوق الفرنسية ، وكانت الدراسة بها ليلية ومدتها ثلاث سنوات ، أمضى منها سنتين فى مصر ، والثالثة فى فرنسا « حيث امتحن هناك وحصل على ليسانس من كلية الحقوق جامعة باريس سنة ١٩٢٥ (١) .

وفى خلال تلك الفترة كان رئيساً للقسم العربى بالجامعة الأمريكية بمرتب قدره ستون جنيهاً يجمع بين الدراسة المسائية للغة الفرنسية ، والعمل الصباحى فى الجامعة .

وهو فى طريقه إلى فرنسا استبدل فى الباخرة الزى الإفرنجى بالزى الأزهرى ولم يعد إليه بعد ذلك .

وعاد من فرنسا بعد أن حصل على الليسانس فى الحقوق عام ١٩٢٥ وظل يواصل التدريس بالجامعة الأمريكية حتى عام ١٩٢٩ .

وحاول أن يتعلم الإنجليزية إلى جانب الفرنسية ، ولكنه أقلع عنها معتقداً أنه مجهود ضائع ، لاسيما بعد أن سافر إلى أوربا ولم يجد صعوبة فى التفاهم بين الناس باللغة الفرنسية وحدها .

---

(١) يعلق الدكتور طه حسين على هذا الخبر قائلاً : (كان يختلف إلى مدرسة الحقوق وسافر إلى باريس ليؤدى امتحان الليسانس ، وزعم لنا أنه نال الليسانس والواقع أنه لم ينل هذه الشهادة) .

واستمر يغذى فرنسيته بما عهد عنه من قراءات واطلاع ، وإعجاب بمشاهير أدبائها أمثال :

« هوجو ولا مرتين وشاتوبريان وفلوبير ودوديه » من الذين يمثلون الأدب الفرنسى فى أوج ازدهاره ، وقد تأثر بهم فى « تخليص أسلوبه من الفضول والحشو والسطحية والميوعة ووصف الأشياء بالتقريب لا بالتحديد ، والتعمق فى درس الموضوع والإحاطة بجملته وتفصيله وبيئته وجوه » [1]

وإن كان الزيات لم يحصل على الشهادة العالمية من الأزهر إلا أنه ظل متعلقاً به فى كتاباته ، ومنذ ظهرت الرسالة عام ١٩٣٣ وحتى عام ١٩٥٣ وهى تزخر بالكثير من المقالات والبحوث والدراسات حول الأزهر وطريقة التدريس فيه ، وكيفية النهوض به ، وسأتناول هذه الناحية بالتحليل فى فصل مستقل ، والآن أكتفى بأن أشير إلى الكثير من المقالات التى خص الزيات بها الأزهر :

١ – الأزهر بين الماضى والحاضر ص ١٩٢ المجلد الأول من وحى الرسالة
٢ – الشيخ محمد عبده ص ٢٤٧ المجلد الأول من وحى الرسالة
٣ – التبشير عدو الإسلام ص ٤٨٥ المجلد الأول من وحى الرسالة
٤ – رسالة الأزهر ص ٢٩ المجلد الثانى من وحى الرسالة
٥ – فى سبيل الأزهر ص ١٨٣ المجلد الثانى من وحى الرسالة
٦ – هل انبعث الأزهر؟ ص ٢٧٤ المجلد الثانى من وحى الرسالة

(١) «فى ضوء الرسالة» ط ١٩٦٣ . المقدمة .

٧ –حل حاسم لمشكلة الأزهر ص ٦٥ المجلد الثالث من وحى الرسالة
٨ –إصلاح الأزهر ص ٦٩ المجلد الثالث من وحى الرسالة
٩ –كيف كان الأزهر حصناً للعربية ص ١٥٣ فى ضوء الرسالة
١٠–مكنوا للأزهر فى إفريقيا ص ٢٢١ فى ضوء الرسالة

ولو تعمقنا الدراسة فى هذه المقالات وأشباهها لرأينا الزيات يحاول جاداً أن يرسم صورة الأزهر فى الماضى ، وينبه إلى الخطر المحدق به وبالإسلام . ويدعو إلى تجديد رسالته وبعثها من جديد ، والعمل على حل مشكلاته ، وإصلاحه ليؤتى الثمرة المرجوة . . وذلك لجلال خطره ، وحفظه على التراث الدينى واللغوى ، ويتمنى لو انطلق الأزهر إلى ماحوله من أقطار ، وما يرتبط به من شعوب . .

وربما كان دافعه إلى هذا الاهتمام ما عاناه من رهق أيام كان طالباً به فى مطلع هذا القرن وما رآه من تخلف يهدد الرسالة التى أنشئ من أجلها ، والأمل المعقود عليه .

وفى أخريات أيامه عاد إلى الأزهر مع المجددين المصلحين ، فعمل مديراً لمجلة الأزهر ورئيساً للتحرير شهوراً من عام ١٩٥٣ فى عهد الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر الذى استقال فى ذلك الوقت . ثم عاد إليها فى عهد الشيخ شلتوت منذ فبراير سنة ١٩٥٩ واستمر يباشر الكتابة فيها حتى آخر أيامه (عام ١٩٦٨) .

وظل وفيًّا على العهد به ينادى بإصلاحه ، ومن ذلك قوله [1]:

(١) وحى الرسالة جـ ٢ ص ٢٧٢ «هل انبعث الأزهر ؟»

« لم يعلم التاريخ جامعة من جامعات الأرض بقيت فى القرن العشرين على ماكانت عليه فى القرون الوسطى غير الأزهر » .

وتنقل الزيات فى دراسته بين الأزهر ، والجامعة القديمة ، ومدرسة الحقوق الفرنسية وجمع بين الثقافتين العربية والأوربية . وكان لذلك أثره فى دعواته . وفى كتاباته عن الأدب واللغة .

ففى كتابه « دفاع عن البلاغة » يرى أن الأدب ليس معرفة الكتابة أو الإملاء . ولكنه موهبة ودراسة : موهبة تكشف وتلهم وتسدد وتعين . ودراسة تمد الكاتب بحصيلة كبيرة من الثقافة الأدبية والثقافة الإنسانية تقوى وسيلته . وتشحن أسلوبه ، وتشكل اتجاهاته وتكون موضوعاته » .

فهو يلجأ إلى الثقافة الإنسانية ليقوى وسيلته وليشحن أسلوبه ويشكل اتجاهاته ، وقد مرّ بنا أنه أخذ عن الثقافة الأوربية وعد الفرنسية منا « لغته الثانية » .

ودعا فى كتاباته إلى نهضة القديم ، والأخذ بأسباب الحديث ، وألف كتابه « تاريخ الأدب العربى » ليعود بالدارسين إلى منابعه الأولى ، كما ترجم الكثير عن روائع شعراء الغرب من الفرنسيين وغيرهم أمثال « آلام فرتر » و « رفائيل » وغيرهما من القصص الرفيع .

وفى كتابه « دفاع عن البلاغة » يرسم للأدب وسائله ، ومذاهبه وأصوله . ويتحدث عن الأسلوب . وكيف نشأت مذاهب الكتابة فى تاريخ اللغة العربية . وكيف نشأت المذاهب الأدبية فى أوربا ؟

ويفند مزاعم أصحاب الدعوة إلى العامية ، ويشرح حقيقة الدعوة إلى الرمزية . ويمزج بين ثقافتين . ويقرب ما بين حضارتين .

ولا شك أن ذلك كله من آثار التعليم فى أروقة الأزهر . وبين ربوع الجامعة المصرية القديمة ، وفى مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة وباريس .

* * *

طلب العلم فى سطور :

١ – فى عام ١٨٩٧ التحق بالأزهر – فى الرواق العباسى .

٢ – فى عام ١٩٠٧ طرد من الأزهر . مع طه حسين ومحمود زناتى .

٣ – فى عام ١٩٠٨ التحق بالجامعة الأهلية وانتهى منها سنة ١٩١٢ .

٤ – فى عام ١٩٢٢ التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة .

٥ – فى عام ١٩٢٥ نال إجازة الحقوق من باريس ١٩٢٥ .

الزيات المعلم :

فى سنة ١٩٠٧ اختار الشيخ سيد المرصفى تلميذه الكفء أحمد حسن الزيات للتدريس بالمدرسة الفرنسية بالخرنفش ، وذهب الزيات إلى عمله بالمدرسة ، وهو لا يعرف طريقة التدريس ، ولكنه حاز إعجاب المفتش « بلاج » الذى سبق الحديث عنه ، واشتدت حركة ترجمة بلاج للقصص الفرنسى حين استوثق من الزيات ، الذى كان يعيد

صياغة جميع ما ينقله بلاج إلى العربية ، وكافأ « بلاج » الزيات على عمله بتعليمه الفرنسية .

وكان يصب مترجمات بلاج فى القالب العربى الرصين ، وظل بهذه المدرسة سبع سنوات ، ومن آثاره التى أنتجها فى تلك الفترة كتاب « بحر الآداب بأجزائه الخمسة » ، والإسهام فى تأليف كتابى « سفينة البلغاء » و « سفينة النحاة » [1] .

الكتاب الأول وضع نثره ونظمه فى أسلوبه الأخير .

والكتابان الثانى والثالث اشترك مع الشيخ سيد الشايب فى إخراجهما :

وطبعت هذه الكتب بإشراف مدرسة الفرير ، وتوجيه الأخ « بلاج » وفى غلاف سفينة البلغاء ينسب التأليف إلى الأخ (بلاج) مفتش اللغة العربية فى مدارس الفرير بمصر (مطبعة الروضة بالقاهرة ١٩٠٧) .

ومقدمته نصها [2] :

---

(١) انظر وحى الرسالة جـ ٢ ص ٢٧٥ هامش (٢) طبعة ١٩٦٣ .

(٢) انظر من مقدمة الكتاب الطبعة المذكورة .

قائمة الكتاب

بسم الله الفتاح ، الهادى إلى سبيل النجاح

الحمد لله الذى بلغ بالإنسان حد أفضاله ، والصلاة والسلام على كل نبى وآله ، أما بعد فمن فتح باب القراءة ، وخاصة بحر الآداب بسفينة النحاة ، طلب إلى أن أضيف إلى مصنفاتى كتاباً فى البلاغة يغنيه عما سواه ، من كتب وضعها القوم ، فى أيام طلابها غير طلاب اليوم ، فأتيت بهذه الخلاصة منطوية على أصول البلاغة وأمهات قواعدها ، وتركت مالا تمس إليه حاجة التلاميذ من زوائدها وشواردها ، حرصاً على وقتهم النفيس ، ووقوفاً بهم عند الحد المطلوب فى التدريس ، والله الموفق للصواب ، ومنه المبدأ وإليه المآب » .

والكتاب عدد صفحاته ٦٢ صفحة تتضمن الأبواب التالية :

١ — مقدمة فى الفصاحة والبلاغة من ص ٣ إلى ص ٦ .

٢ — علم المعانى من ص ٧ إلى ص ٣٣ .

٣ — علم البيان من ص ٣٦ إلى ص ٤٧ .

٤ — علم البديع من ص ٥٠ إلى ص ٥٥ .

٥ — خاتمة فى حسن الابتداء والتخلص والانتهاء ص ٥٨ .

وواضح من مقدمة الكتاب أنها من تأليف عربى متمرس باللغة ، متدرب على الصياغة ، وفيها الروح الإسلامية العربية الأصيلة ؛ والعبارات فيها مسجوعة تنبئ عن ثقافة عربية خالصة لا تشوبها عجمة ؛ والمستشرق (بلاج) لم يشأ أن ينوه بذكر المدرس الحديث العهد بالتدريس أحمد الزيات أو زميله السيد الشايب حتى ينسب العمل كله إليه ، وحتى لا يداخلهما الغرور وهم فى بداية السلم .

أما كتاب « سفينة النجاة » فقد كتب على غلافه :

تأليف لفيف من الأساتذة :

الطبعة الثانية/ مطبعة مدرسة الفرير الصناعية — باب سدرة — الإسكندرية وصدر فى أربعة أجزاء عام ١٩٢٤ للطبعة الثانية .

وعلى الغلاف كتب هذان البيتان :

بالنحو زين كل قول واعتن فالمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها نفعاً مقيم الألسن

والبيتان يبدو النظم فيهما بيد عربية ، وأسلوب رقيق ، ويدل على براعة فى التأليف وإحسان فى النظم يستعصى على الغريب عن اللغة .

وفى رثائه لزميله الأستاذ أحمد عثمان المهدى يكتب مقالا بعنوان « نهاية أستاذ » ويقول فيه [1] :

« وزاملته سبع سنين مدرساً فى كلية الفرير بالخرنفش ، يعلم العربية

---

(١) أغسطس ١٩٤٢ وحى الرسالة ج ٢ ص ٣٧٥ .

فى فصولها المختلفة وينسخ « للأخ بلاج » المفتش أصول مؤلفاته فى النحو والبلاغة والأدب » .

ويعلق على هذا القول فى الهامش مؤكداً :

« من الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن أقول بهذه المناسبة إن الذى ألف كتابى (سفينة النحاة ، وسفينة البلغاء) هو الشيخ سيد الشايب ، وأن الذى حرر كتابى (نحو الآداب) فى أجزائه الخمسة ، ووضع نثره ونظمه فى هذا الأسلوب الأخير هو الشيخ أحمد حسن الزيات وكان الرجلان مدرسين فى كلية الفرير » .

وفى سنة ١٩١٤ انتقل إلى المدرسة الإعدادية الثانوية بالظاهر ، وظل مدرساً بها حتى عام ١٩٢٢ يقول عن تلك الفترة من حياته [١] :

« كنا فى ذلك الوقت ، نحمل فيمن حملوا أمانة التعليم فى المدرسة الإعدادية الثانوية التى أسسها فى حى الظاهر من القاهرة المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويش ليصلح بها ما أفسد الاحتلال الإنجليزى من مفاهيم التعليم ونظمه . .

وكان معنا فى هذه المدرسة أحمد زكى والكردانى والصاوى والغمراوى وخلاف ، وبدران وكامل سليم ، وكانوا بعد ذلك من أساطين النهضة الحديثة فى وزارة المعارف والجامعة إلى أن يقول :

« ثم توقفت الألفة بيننا جميعاً ، فأنشأنا (لجنة التأليف والترجمة والنشر) لسد العوز فى كتب التعليم الثانوى ، وغذينا بوقود الروح ثورة

(١) مجلة المجمع اللغوى جـ ٢٣ ص ٢١٥ .

السنة التاسعة عشرة فى المدرسة الإعدادية وكان عملى أن أشارك من بعيد فى تحرير المنشورات الثورية التى كانت توزع سراً فى أنحاء القطر» .

ومن ثمرة هذه الفترة كتابه «تاريخ الأدب العربى» الذى سد ثغرة فى الحياة المدرسية المصرية آن ذاك ، وطبع أكثر من خمس وعشرين مرة فى حياته ، وقررت دراسته بالمدارس الثانوية والمدارس العليا .

وعن تجربته فى المدرسة الإعدادية الثانوية يقول عن «أول درس ألقيته [1] » (أبداً لا أنسى تلك الساعة الرهيبة العصيبة التى ألقيت فيها أول درس فى أول فصل كان ذلك منذ سبعة عشر عاما [2] ، والسن حديثة ، والنفس غريرة ، والنظر قصير وكانت المدرسة ثانوية أجنبية ، تجمع أخلاطاً من الأجناس والأديان ، وأنماطاً من الأخلاق والتربية ، وكنت قد أدركت قسطاً من العلم النظرى على الطريقة الأزهرية ، وشددت طرفاً من التعليم الفنى على الطريقة اللاتينية ، إلا أن ما حصلت منهما كان لا يزال طاغياً فى ذهنى ، متحيراً فى فكرى . . .) .

ويحكى كيف بدأ الدرس ، وكيف سار فيه ، وكيف خرج من الفصل وفى ضميره أن يترك التعليم إلى عمل آخر يصلح له .

ولكنه تجلد وعاد فى اليوم التالى إلى الفصل ، ومضى فى التعليم ، وبعد شهرين اثنين كان مدرس الفصل الأخير ، وأستاذ الكلية الأول .

وعزا أسباب نجاحه فى عمله إلى النقاط التالية :

---

(١) ص ١٨٨ من كتابه فى أصول الأدب .

(٢) نشر المقال فى عدد يناير من السنة الأولى من مجلة التربية الحديثة ١٩٢٨ .

(١) مواصلة الدرس .

(٢) إعداد الدرس وأداؤه .

(٣) مسايرة الترقى لتوثيق الصلة بين المعلم والمتعلم .

(٤) حسن الخلق ليكون قدوة حسنة .

(٥) قوة الحزم – لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عسف .

وجمع إلى ذلك طبعاً غالباً ، ورغبة حافزة ، ومرانة طويلة . . وصار يجد سعادته وراحته فى الفصل وبين الطلاب أكثر مما يجدهما فى البيت وبين الأحباب .

ولما اندلعت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ كان فى قيادتها طلبة المدرسة الإعدادية ، والمدرسة الإلهامية ، ومدرسة الحقوق الخديوية .

ومن المدارس الثلاث تكونت اللجنة التنفيذية للطلبة ، وتحركت طليعة الثورة وعددهم ٢٥ طالبا ثم تحرك الأزهر ، والمدارس الأخرى بعدهم .

وما دور الزيات فى الثورة ؟

اشترك فيها على نحو ما مر بنا ، محرراً لبياناتها الثورية ، ومنشوراتها السرية ، واشترك فى مظاهراتها وكانت له فيها مواقف مشهورة منها : «ساعة حرجة فى يوم عصيب [١] » .

كان يشترك فى تشييع جنازة الشهداء الأربعة الذين قتلهم جنود الاحتلال فى المظاهرة الكبرى التى قامت فى يوم ٨ / ٤ / ١٩١٩

(١) ص ٢٣ من «فى ضوء الرسالة» .

واشترك فيها علماء الأزهر وقساوسة الأقباط ، ورجال القضاء والمحاماة وضباط الشرطة والجيش وطلبة المدارس والمعاهد . .

وتعرض للجنازة الأستراليون الغلاظ بالرصاص فقتل أربع آخرون وجرح كثيرون .

وفى اليوم التالى ٩ / ٤ / ١٩١٩ تجمع المشيعون عند ميدان القلعة ، فوجدوا الطريق إلى المقبرة مسدوداً بجماعات من الجنود الحمر ، فتركوا النعوش تمر ، ونزلوا فى الناس ضرباً وطعناً .

وتفرق الجميع – منهم من لجأ إلى حى السيوفية ، ومنها اندفعوا إلى شارع عبد العزيز ، وسط معركة دامية بين الشعب والإنجليز . والناس مستبسلون . . ورصاص الأرمن واليهود ينصب عليهم من البيوت .

وفى ميدان الأوبرا دخلوا قهوة نوبار (يوسف الجندى ومحمد فريد أبوحديدوالزيات) أما يوسف فقد كان فاراً من بلدته زفتى لأن الإنجليز احتلوها بعد أن أعلنت استقلالها وتألفت فيها لجنة لقيادة الثورة برئاسته . وجاء إلى القاهرة مختفيا عند صديقه أبو حديد وظل مطلوباً إلى المحكمة العسكرية حتى أفرج عنه سعد زغلول ، أما الزيات فكان يلبس الجبة والقفطان وكان مدرساً بالمدرسة الإعدادية الثانوية ، وطلابها يربون على الألف ، وأكثرهم ممن أخرجوا من مدارس الحكومة لوطنية السلوك أو علو السن ، ومن طلاب هذه المدرسة وطلاب مدرسة الحقوق تألفت اللجنة التنفيذية للطلبة ، وكان عمل الزيات باللجنة أن يشارك من بعيد فى تحرير المنشورات الثورية التى كانت توزع سراً فى أنحاء البلاد ، وكان يحمل منها

دائماً صوراً مخطوطة أو مطبوعة .

وجلس الزيات يقرأ على صاحبيه مسودة منشور جديد على إحدى موائد المقهى . وبينما هم على هذا الحال إذ حاصر الإنجليز المكان ، وأخذوا يفتشون عن الأسلحة والأوراق وكان معه ورق ، ومع يوسف مسدس . ولو ثبت عليهم شيء لنالوا أشد العقوبة .

وبدأ التفتيش واحتل الجنود القهوة ، وأخرج يوسف مسدسه وهم أن يلقيه على الأرض ولكنه رأى ألا يتحرك حتى لا يلفت الأنظار إليه فوقفت به يده تحت المنضدة ، وحاول الزيات أن ينقذه فانحنى قليلا على المائدة ، ومد يده وأخذ المسدس وغيبه فى جيبه .

ولاحظ الجندى الحركة فأقبل عليه ، والغضب فى وجهه ، ونظر إليه ، وإلى الأرض فلم يجد شيئاً ، ووقف الجندى إلى جواره يتلفت ويمعن النظر فى الجالسين ، وقلبه راجف ، وعينه زائغة ، وجاء دورهما فى التفتيش ففتش الضابط يوسف تفتيشاً دقيقاً ، ثم أشار إلى الزيات أن يقف ، فوقف مضطرباً فزعاً ، وحار الجندى فى أمره ، كيف يجد جيبه ؟ وكيف يفتش ثوبه ؟ واكتفى بأن مر بيديه مرًّا خفيفاً فوق صدره وتحت إبطه ثم ابتسم له وانصرف إلى غيره .

وانتهت الهجمة بأن غادروا القهوة إلى غيرها ، والتقطوا المسدسات من الأرض وتنفس الصعداء بعد أن زال جنود الأعداء .

هذا موقف من المواقف التى شهدها الزيات فى معاركه ضد أعداء أمته ، وموقف آخر وقفه فى باريس وذكره بأحداث هذه الثورة ، عندما

سافر إليها طلباً للعلم سنة ١٩٢٥ ورأى احتفال أهلها بثورتهم ، وتذكر موقفه من ثورة ١٩١٩ فى بلاده ، وكان شعوره[1] :

« شعور الجندى فى المعركة يمحى فى وجدانه الشعور بذاته ، والتفكير فى حياته ، ولا يبالى فى سبيل وطنه أن يقتل أو يقتل . . » .

وانتقل من المدرسة الإعدادية الثانوية إلى الجامعة الأمريكية كرئيس للقسم العربى بها من عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٢٩ لم يغادرها إلا سنة واحدة ، قضاها فى باريس للامتحان فى الحقوق الفرنسية .

وكان يتمنى أن يشتغل بالتدريس فى مدرسة دار العلوم العليا ، حيث المجال الذى يتفق وميوله العلمية واللغوية ، غير أن ضعف بصره لم يمكنه من ذلك وحال بينه وبين تحقيق أمنيته .

وعرض عليه أحمد لطفى السيد أن يعمل مدرساً بالجامعة المصرية ، ولكن مرتبها لم يرق له بخاصة بعد أن كان يتقاضى ستين جنيهاً من الجامعة الأمريكية .

وفى تلك الفترة من حياته أخذ يتعمق فى اللغة الفرنسية ، ويترجم عنها « آلام فرتر » لأنه كان يمرّ بالظروف التى مرّ بها « فرتر » ووجد فى قصته صدى لما يعتمل فى نفسه وتسليته عما يعانى من أزمات .

فقد فارق زوجته الأولى التى تزوجها سنة ١٩٠٢ أيام أن كان طالباً بالأزهر ، وأنجب منها ابنة سماها (سعاد) عاشت أحد عشر شهراً ثم توفيت وفارق أمها على الرغم منه ، وإن ظل وفيًّا لها طيلة حياته — كما

(١) ص ١٦٦ جـ ٤ وحى الرسالة .

أسلفت القول – وبعد عودته من فرنسا سنة ١٩٢٦ تزوج للمرة الثانية ، وأنجب من زواجه الثانى ولده « رجاء » عقب عودته من العراق ، وتوفى وحزن عليه أشد الحزن . ورزقه الله بابنه الثانى « علاء » عام ١٩٣٤ (١) .

هذه التقلبات الأسرية ، والأسفار العلمية ، والعمل بالجامعة الأمريكية طبعت هذه المعالم حياة الزيات بطابع جديد ، فيه الطموح ، وحب الاستقرار والميل إلى العمل الجاد المثمر .

وتبدو صورة أفكاره واضحة فى مقال « بين الدين والحب » (٢) هذا المقال يحكى حياة طالب لبنانى مسلم تلقى علومه فى الجامعة الأمريكية ، واحتفظ لأستاذه الزيات بعاطفة الوفاء والحب ، والتقى به أخيراً فى الإسكندرية ، بحث عنه طويلا علّه يجد حلا لديه يخلص نفسه من مشكلة أحزنته .

أحب هذا الشاب فتاة أبوها مسلم وأمها إنجليزية مسيحية ، أخذت عن الأم جمال الطلعة ، وحسن التربية ، ولكنها أخفقت فى أن تعرف من أبيها شيئاً من سماحة الإسلام .

ولما خطبها من أبويها ، وغابت عنه فترة ، رآها بعد أن عادت من لندن متغيرة فى دينها وفى سلوكها وأفكارها ، وراح يلتمس العلة فوجد أن أمها قد أعلنت تدينها بالنصرانية . وأنها لا تدرى عن الإسلام إلا

---

(١) هو الدكتور علاء الزيات الأستاذ بكلية الطب (جامعة القاهرة) وسبق الحديث عنه فى ص ١٥ و ١٦ من البحث .

(٢) وحى الرسالة ج ٢ ص ٩٣ أكتوبر ١٩٣٩ .

ما تعلمته على أيدى الراهبات فى مصر وفى إنجلترا .

ولما سألها : كيف يسوغ فى عقلك أن يكون كلام الخصم على الخصم حجة ؟

قالت :

وعلى من كنت تريد أن أدرسه ؟ أعلى أبى وما سمعته مرة يذكر الله ولا رأيته يوماً يدخل المسجد ؟ أم على أمى وقد كانت مسيحية لا تؤمن ؟ فأصبحت مسيحية لا تعتقد ؟ وهل كان فى مقدورى أن أغالب الفطرة ، وفى نفسى إلى الله شوق نازع لا أملك الصبر عليه متى رأيت السبيل إليه ؟ .

ثم طلب من الزيات – أستاذه – أن يسعفه بالحل ، ليعيد إلى الفتاة ثقتها فى نفسها وفى دينها وفى ربها . . فدله على كتاب « روح الإسلام » للأستاذ الهندى (ميرعلى) ، وفى نهاية المقال تمنى أن يعيش حتى يكتب الفصل الأخير من هذه الرواية .

وفى هذا المقال ملامح من حياة الزيات فى تلك الفترة :

– عرف من دراساته بمدارس الفرير وبالجامعة الأمريكية أثر التبشير فى أبناء المسلمين ، وكيف يفتنونهم عن دينهم .

– أشار إلى الآثار السيئة التى تترتب على الزواج من الغربيات ، وكيف يهدد هذا الزواج العلاقات الأسرية والدينية .

– بدأ يوجه همه إلى التربية الإسلامية الصالحة حتى ينقذ الأبناء مما هم فيه من بلبلة وانحدار .

- يريد أن يوضح أثر التربية الإسلامية التى تتلقاها عن غير المسلم .

- عالج مشكلة من مشاكل الجنس ، ورفع من قدر الحب الذى سما حتى وصل إلى مرتبة الانتظار والاحتفاظ بجلال الدين ورونقه .

- يوجه رجال الدين إلى دور هام عليهم أن يقوموا به ، ليحموا أبناءنا من ضلالات المزيفين ، ودعاواهم المغرضة .

- وغير ذلك كثير يمكن أن نقرأه بين السطور.

- وفى عام ١٩٢٩ سافر إلى العراق أستاذاً للآداب العربية بدار المعلمين العليا ببغداد وأبرمت معه الحكومة العراقية عقداً لثلاث سنوات ؛ يشتمل على شروط تدل على تقديرها لعلمه ومنزلته .

وهذه السنوات الثلاث من أخصب حياة الزيات المعلم ما زال يذكرها له العراق الشقيق بالتقدير والإجلال .

واشتغل فى العراق أستاذاً وناقداً ومحاضراً ومؤرخاً ، أما أستاذيته فيشهد بها أبناء العراق الذين تتلمذوا على يديه وصاروا الآن قادته وأعلامه فى الشعر والأدب والفن والرأى والفكر .

وأما نقده فقد جمع فيه إلى صدق البصيرة نفاذ الحجة ، وإصابة الهدف ، وكانت مجالس نقده تضم الملك والوزير والمعلم والضابط والحقوقى والشاعر والكثير من رجالات العراق البارزين فى السياسة والفكر والاقتصاد .

وتسير به المجالس ، وتردده الألسنة ، وتنشره الصحف ، وتتناقله المحافل وحاضر فى نواديها عن ألف ليلة وليلة ، وعن الأدب العربى ماضيه

وحاضره كما حاضر من قبل بالجامعة الأمريكية أيام كان أستاذاً بها .

وأرخ لتلك الفترة كتاباً سماه «العراق كما رأيته» وتحدث عن هذا الكتاب كيف ألفه ؟ وكيف فقده ؟ فى مقال له بهذا العنوان نشره فى مجلة الرسالة فى ١٥ / ١ / ١٩٤٠[1] .

وقد حاولت أن أجمع ما كتبه الزيات عن العراق فى تلك الفترة ، وعما نشره من ذكريات عنها ، وعقدت لذلك فصلا مستقلا أفضت الحديث فيه فليرجع إليه .

وعاد الزيات من العراق عام ١٩٣٢ وعرض عليه أحمد لطفى السيد أن يعمل أستاذاً بالجامعة ، مادام قد عمل فى ميدانى (الجامعة الأمريكية) و (دار المعلمين العليا ببغداد) ولكنه عزف عن العمل فيها (بعد أن كان يتمناه) لقلة أجرها ، ولأن صديقه الدكتور طه حسين قد أبعد عنها فى نفس السنة بسبب الضجة التى أثارها كتابه «فى الأدب الجاهلى» . وقرر فى نفسه أن يصدر «الرسالة» لتكون ميداناً للأدب الرفيع .

---

(١) وحى الرسالة جـ ٢ ص ١٣٦ .

الزيات المعلم فى سطور

١ – عام ١٩٠٧ عين مدرساً بكلية الفرير بالخرنفش .
٢ – عام ١٩١٤ عين مدرساً بالمدرسة الإعدادية الثانوية بالظاهر .
٣ – عام ١٩٢٢ عين مدرساً للأدب العربى بالجامعة الأمريكية .
٤ – عام ١٩٢٩ عين أستاذاً للآداب العربية بدار المعلمين العليا ببغداد .
٥ – عام ١٩٣٢ عاد من العراق . . وفكر فى إصدار مجلة الرسالة .

* * *

وفى كل مرحلة من هذه المراحل اكتسب خبرة ، وأضاف إلى تراثه عملا جديداً .

– فألف كتباً فى علوم اللغة وقواعدها .
– وترجم قصصاً من عيون الأدب الغربى .
– وحاضر فى الأدب العربى ونقده .
– وعقد ندوات ، وقام بدراسات وتراجم لمشاهير الأدب .
– وأضاف إلى لغته العربية الأصيلة لغة أجنبية وافدة ، جعلت منه أديباً عربى اللسان ، متجدد الفكر ، متفتح الأفق ، مبتكراً فى دراسة الأدب ونقده .

– كتب مقالات فى أصول التربية ، وطرق التدريس منها «أول درس ألقيته» و«تجاربى فى تدريس اللغة العربية» و«الأدب العربى وما فى دراسته من نقص» و«آفة اللغة هذا النحو» .

وكلها دراسات جديدة جديرة بالنظر والتعليق ، وقد تعرضت لها فى أماكن متفرقة من البحث .

– واختار لنفسه أن يعلم فى ميدان آخر «ميدان الصحافة الأدبية» فأنشأ «الرسالة» لتكون مدرسة فى الأسلوب وفى تطوير الأدب ونقده .

الزيات والرسالة :

عندما عاد الزيات من العراق فكر فى إصدار الرسالة عام ١٩٣٣ ، يحدثنا عن هذا التفكير فى العدد المتمم للألف من أعدادها إذ يقول [١] :

«فى ذات عشية من عشايا نوفمبر من عام ١٩٣٣ زرت أخى الدكتور طه حسين فى دارته بالزمالك وكنت منذ أربعة أشهر قد رجعت من العراق بعدما أغلقت دار المعلمين العليا ببغداد ، وكان هو قد أنزل عن كرسيه فى كلية الآداب من «جامعة فؤاد» – جامعة القاهرة الآن .

فقلت له بعد حديث شهى من أحاديث الذكرى والأمل :

ما رأيك فى أن نصدر معاً مجلة أسبوعية للأدب الرفيع ؟

فضحك ضحكته التى تبتدئ بابتسامة عريضة ، ثم تنتهى بقهقهة

(١) ص ٧٢ من المجلد الرابع وحى الرسالة بتاريخ أول سبتمبر ١٩٥٢ .

ضويلة وقال : وهل تظنك واحداً تجلة الأدب الرفيع قراء فى مجتمع ثقافة خاصته أوربية . وعقلية عامته أمية ، والمذبذبون بين ذلك لا يقرءون – إذا قرءوا – إلا المقالة الخفيفة : والقصة الخليعة والنكتة المضحكة ؟ . .

فقال لى بعد نقاش طويل : أنت وشأنك ! أما شأنى فهو المقال الذى أكتبه . ورأيى الذى أراه .

وكان يظاهرنى على تفاؤلى أصدقائى الأولون من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فكانوا بهذه المظاهرة ، نقطة الارتكاز ومبعث المدد . وأخيراً تغلب العزم المصمم على التردد الخوار فصدرت الرسالة : صدرت قوية بالروح ، غنية بالمادة فتية بالأمل ، فكانت ولله الحمد حدث العام ، وحديث الناس ! ! صادفت خلاء فشغلته ، وخللا فسدته ، وعبثاً فحاولت أن تصد عنه بإيقاظ النخوة فى الرؤوس ، والكرامة فى النفوس والرجولة فى النشء . . » .

ولم تكن بمصر حين صدرت الرسالة مجلة أدبية تعالج فنون الأدب ، وتلبى رغبة القارئ الجاد ، لذلك لم تكد تخرج إلى الناس حتى تلقوها بما لديهم من شغف ، وبما فى نفوسهم من أمل .

– وفى المقال نفسه يوضح الزيات المزايا التى اضطلعت بها الرسالة فى أمور هى :

(ا) بلاؤها العظيم فى إنهاض الأدب .

(ب) توحيد العرب .

(جـ) تخريج طبقة من الأدباء .

(د) تثقيف أمة من القراء .

(هـ) مجاهدة السلطان الباغى ، والثراء الطاغى والفقر المهلك .

وعلى مدى عشرين عاماً قضتها الرسالة فى دفع صحافة أدبية هادفة ، نرى فيضاً من المقالات التى كتبت فى نصرة الدين ، ودعم اللغة ، ورياضة الأدب ، وريادة الوحدة العربية ومحاربة الإقطاع وإنصاف الفلاح ، ومهاجمة الامتيازات الأجنبية ، وفقد الزعامات الزائفة ، والتنديد بالحزبية المفرقة ، والإنذار بخطر اليهود فى فلسطين ، والتبشير بالثورة ، والتنبؤ بالرجل المنتظر لإنقاذ الأمة .

ويرى الزيات أن السر فى بقائها طوال فترة العشرين عاما هو «أنها عفت عن المال الحرام ، فلا تجد لها اسماً فى (المصروفات السرية) ولا فعلا فى المهاترات الحزبية ، ولا حرفاً من الإعلانات اليهودية»[1] .

وبمولد الرسالة تفرغ الزيات لها . وطلق الوظائف الحكومية ، واكتفى بها إلى جانب بعض المناصب الشرفية التى لا التزام فيها ، ولا قيود تحد من الحركة . مثل عضويته بمجمع اللغة العربية من سنة ١٩٤٨ حتى آخر حياته .

وفى ٢٣ فبراير ١٩٥٣ كتب الزيات مقالاً عنوانه «الرسالة

---

(١) منعت شركة الإعلانات الشرقية ، التى كانت بأيدى اليهود ، نشر الإعلانات التى كانت تنشرها الرسالة فى مقابل ١٥٠ جنيهاً وقابل الزيات هذا المنع بقوله : عوضنا الله من فقد إعلاناتهم انتشار الرسالة فى فلسطين والأردن وسورية .

تحتجب [1] « يبين فيه السر فى عدم قدرتها على الاستمرار فيقول :

« كانت الرسالة منذ فحش غلاء الورق ، وفدحت نفقات الطبع ، تكفى نفسها أو تخسر قليلاً ، وكنا نواجه هذه الحال بالتعفف ، والتقشف ، والصبر فتنساغ مرارتها أو تخف ، فلما شاءت الضرائب ألا تعقل ، وأرادت الحكومة ألا تعلن ، وقررت وزارة التربية والتعليم ألا تشترك ، أخذت الخسارة تنمو وتطرد حتى بلغت فى العام المنصرم – عام ١٩٥٢ – ألفاً ومائة وعشرين جنيهاً .

فرأينا فى مطلع هذا العام أن نقوى الرسالة لتصمد ، وأن نعيد (الرواية) لتساعد ، فإذا بالخسارة تتسع ، وبالطاقة تضيق ، وبالأزمة تشتد ، وبالأمل يضعف ، فلم نجد بدًّا من الإذعان لمشيئة القدر . . ! ! » .

تجمعت الأسباب ، وتكدست الديون ، وغلا الورق ، وفدحت النفقات ، واتسع حجم الخسارة فلم يجد بدًّا من التوقف .

وقصة الرسالة من بدئها إلى نهايتها أفردت لها فصلاً مستقلاً ، لأنها تمثل مرحلة من مراحل العمر ، ولوناً من ألوان الكفاح الذى تخصص له الزيات ، وعكف عليه .

يقول فى مقدمة كتابه فى ضوء الرسالة :

« أما حياتى الأدبية فقد قضيت فيها زهاء خمسين سنة فى التعليم والتأليف والكتابة والترجمة والصحافة والإذاعة ، ولكنى أذكر منها ثلاث

---

(١) ص ١٠٢ وحى الرسالة جـ ٤ .

مراحل تميزت بأثر مستقل مباشر

المرحلة الأولى كانت فى ثورة ١٩١٩ (وسبق الحديث عنها) .

والمرحلة الثانية كانت فى سنة ١٩٢٩ حين انتدبتنى حكومة العراق . .

أما المرحلة الثالثة فكانت فى سنة ١٩٣٣ حين أصدرت الرسالة ، فقد استطاعت هذه المجلة فى مدى عشرين سنة أن تنشئ جيلاً من الكتاب والشعراء لهم أثرهم القوى ، وأن تنشئ مدرسة فى الأدب لها طابعها الخاص ، وأن تعرف أدباء العرب بعضهم لبعض على انقطاع الأسباب وتباعد الديار وأن تجمع القلوب والشعوب على فكرة واحدة ، وغاية معلومة ، وأن تكون سفيراً روحيًّا لمصر فى جميع البلاد العربية والإسلامية .

فهو يصف مرحلة الرسالة (المرحلة الثالثة) أنها المرحلة التى أنشأت جيلاً من الشعراء والكتاب ولهم أثرهم القوى فى أمتهم وفيمن حولهم من البلاد العربية والإسلامية .

وفى أثناء تلك الفترة عرضت عليه مناصب العلم والأستاذية فى المعاهد العلمية ، والجامعات العربية والإسلامية ، فعزف عنها ؛ واعتذر فى حكمة ولباقة ، من ذلك ما قاله لصديقه توفيق الحكيم حين رشحه لكرسى (شوقى) فى كلية الآداب من جامعة (فؤاد) [1] :

«إنك تعلم من نفسك ، ومن تجاربك ، أن الترشيح لمثل هذه المناصب ، تتنازعه عوامل مختلفة من هوى السياسة ، ورضا الحكم ،

(١) بعنوان «صديقى توفيق الحكيم» ٢٠ مايو ١٩٤٨ .

والمعروف أنهم ينظرون فى المنصب إلى المال والجهد . ومن هنا يستحق ولا ينظرون فيه إلى الفضل والكفاية ومن بهما يتصف .

وإنى أعلم من نفسى ، ومن طبعى أننى لا أقبل هذا الكرسى ؛ وإن ذللت عقابه ، وسهلت صعابه ، لأنى أن أظل فيه بقية حياتى كما كنت جنديًا متطوعاً فى القوة الخفيفة من قوى الأدب العربى أرود وأنتجع ، وأكتشف من غير نظام أتبعه ، ولا قائد أطيعه ، ولا جزاء أبتغيه . . ولقد عرض علىّ فى العام الماضى عميد كلية الآداب السابق أن أكون أستاذاً زائراً فى الكلية ، فقلت له والأسى يهدج صوتى ، ويقطع كلامى ، شكراً يا صديقى وعذراً ، لقد تقدمت السن ، وتأخرت الصحة ، وأوشك الماخر فى عباب الحياة أن يبلغ الساحل . . .

وكان الزيات فى مجلة الرسالة يمثل العمود الفقرى ، والمعلم الأوحد ، والرائد الموجه ، يشرف عليها من ناحية الإدارة والكتابة ، والتوزيع ، ويعرف كل صغيرة وكبيرة عن حساباتها وأرباحها وخسائرها ، ويوجه دفة الأمور فيها . . بل يصحح « تجاربها » ويعدها للطبع ويجدد فى أبوابها وطرق إخراجها . . . إلخ .

ومقالاته تمثل الجانب الرئيسى فيها ، وقلما يصدر عدد من أعدادها دون افتتاحية الزيات ، ومن يتتبع أعداد المجلة منذ صدورها حتى احتجابها يقرأ للزيات فى مقدمة كل عدد وفى كتابه : وحى الرسالة بمجلداته الأربعة يسجل التاريخ الذى كتب فيه المقال .

وبعد أن توقفت الرسالة عن الصدور ، كان يكتب مقالات فى مجلة

الأزهر ، وفى مجلة الرسالة الجديدة ، وفى غيرها من مجلات الأدب . . . فجمع كل ما كتبه أو أذاعه فى المذياع أو نشره بأى وسيلة من وسائل النشر فى كتابه «فى ضوء الرسالة» .

وفى الجزء الأخير من وحى الرسالة جمع الأحاديث التى أذاعها ، وضمنها الكتاب من صفحة ٢٥٢ حتى ص ٣٥٩ تحت عنوان «أحاديث» .

وكل ما كتبه بعد احتجاب الرسالة جعله امتداداً لها وأثراً من آثارها قائلاً فى مقدمة «فى ضوء الرسالة» وضوء الرسالة الإنسانية التى احتجبت قبس من ضوء الرسالة الإلهية التى لن تحتجب فهو لا يفنى بفناء الصلاح ، كما لا تفنى الروح بفناء الجسد ، إنه لا يزال ملء عينى ، وملء قلبى ، فأنا أبصر كل ذات بنوره ، وأستشعر كل معنى بشعوره ، وأرسل أشعته على ظلمات ماضىّ البعيد فتتجلى فيها عواصف صباى ، ومواقف كهولتى ، كما تتجلى للعين والنفس أحداث الأمس وأعمال اليوم ، «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» .

فرسالته وإن كانت قد احتجبت إلا أنها قبس من ضوء الرسالة الخالدة الكبرى التى لن تحتجب ونورها لا يزال ملء عينيه ، وملء قلبه . . ويرسل أشعته على أحداث الأمس ، وأعمال اليوم .

والحديث من الرسالة بدقائقها وتفاصيلها مفصل فى صفحات مستقلة عن هذا البحث ، ويكفى أن أقدم لها فى سطور تحدد الخط البيانى الذى سارت عليه فى مدى عشرين عاماً من حياة الزيات : والبيانات

مأخوذة من السجلات الرسمية :

١ – صرح للأستاذ أحمد حسن الزيات فى ٢٧ نوفمبر ١٩٣٢ بإصدار مجلة أسبوعية أدبية عربية فى القاهرة باسم الرسالة – وصدر العدد الأول منها فى ١٥ يناير ١٩٣٣ .

٢ – فى يناير ١٩٣٧ صرح للأستاذ أحمد حسن الزيات بإصدار مجلة نصف شهرية أدبية عربية باسم (الرواية) وصدر العدد الأول منها فى أول فبراير ١٩٣٧ .

٣ – فى أول يناير سنة ١٩٤٠ ضمت مجلة الرواية إلى مجلة الرسالة ، وأصبح اسمها (الرسالة والرواية) وظلت تصدر أسبوعية حتى آخر عدد ظهر منها برقم ١٠٢٥ فى ٢٣ فبراير ١٩٥٣ .

٤ – صدرت فى أول أمرها (نصف شهرية) برغم أن التصريح قرر أن تكون أسبوعية وظلت تصدر (نصف شهرية) حتى العدد (٢١) فى ١٥ من نوفمبر ١٩٣٣ ثم صارت أسبوعية منذ العدد (٢٢) فى ٤ من ديسمبر ١٩٣٣ وفى يوم الاثنين من كل أسبوع حتى توقفت عن الصدور . لم تتخلف عدداً واحداً أو يوماً واحداً .

ومرت الرسالة بأطوار ومراحل هامة بدأت من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٥٣ وبيانها كما يلى :

أولاً : المرحلة الأولى (نصف شهرية) ٢١ عدداً .

ثانيا : المرحلة الثانية (أسبوعية) ٣١٧ عدداً حتى الحرب العالمية الثانية .

ثالثاً : المرحلة الثالثة (أسبوعية) ٢٦٨ عدداً خلال فترة الحرب

رابعاً : المرحلة الرابعة (أسبوعية) ٤١٩ عدداً بعد الحرب وحتى الثورة

١٠٢٥ عدداً

بعد احتجاب الرسالة :

يقول الدكتور مهدى علام ، فى حفل تأبين المجمع اللغوى للزيات (٢٨ من شعبان ١٣٨٨) (١٩ من نوفمبر ١٩٦٨) :

« وبعد احتجاب الرسالة لم يضع الزيات القلم ، بل ظل يكتب فى الصحف ، ثم تولى رياسة التحرير لمجلة الأزهر عدة سنوات ، واصل فيها ريادته للأدب ، وعنايته باللغة ، ودعوته للإسلام .

وإذا كانت الأمة العربية ، قد كرمته فى جميع أقطارها ، وأحلت كتبه وكتاباته محل الأستاذية الأدبية ، فإن الدولة قد عرفت له قدره ، فكرمته بجائزة الدولة سنة ١٩٥٣ عن كتاب (وحى الرسالة) ولما عدل قانون جوائز الدولة ، فى عهد الثورة ، وأصبحت جائزة الدولة التقديرية ، لا عن كتاب أو عن عمل من الأعمال ، بل صارت تتويجاً للحياة كاملة كرمته الدولة مرة أخرى ، فمنحته سنة ١٩٦٢ الجائزة التقديرية فى الأدب ، كما اختارته عضواً فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

لم يتوقف الزيات عن الكتابة ، ولا عن العمل ، وظل يواصل الجهاد فى مجالات ثلاثة :

الأدب ، واللغة ، والدعوة إلى الإسلام .

ففى عام ١٩٥٣ عين مديراً لمجلة الأزهر ، ورئيساً للتحرير بها ، ومكث فى منصبه عدة شهور ، ثم استقال منها تأييداً لموقف صديقه شيخ الأزهر (الشيخ عبد المجيد سليم) كما أسلفت القول .

وفى شهر فبراير عام ١٩٥٩ عاد إليها فى عهد الشيخ محمود شلتوت مديراً لها وأسندت رئاسة التحرير إلى صديقه المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد . وظل بها إلى أن مات .

وأشرف على مجلة (الرسالة الجديدة) التى ردت لهفة الأدب والأدباء بين سنتى ١٩٦٣ و ١٩٦٥ .

كما عين عضواً بلجنة النثر فى المجلس الأعلى للفنون والآداب منذ إنشائه .

وذلك بالإضافة إلى النشاط الأدبى واللغوى فى :

١ – عضوية المجمع اللغوى من عام ١٩٤٨ حتى وفاته .

٢ – عضوية المجمع العلمى العربى – بدمشق .

٣ – عضوية المجمع العراقى ببغداد .

٤ – عضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ إنشائها .

وكان يشرف على مطبعة الرسالة ، التى اشتراها من ماله الخاص ، وظل محتفظاً بها بعد احتجاب الرسالة فترة ، وكان يسكن فوقها مدة من الزمن ، انتقل بعدها إلى مسكن مستقل فى (منيل الروضة بالقاهرة) كما أسلفت القول .

ولما عجز عن إدارة المطبعة باعها إلى أحد أصدقائه المقربين [1] ، وسدد الديون المتراكمة عليه بسبب الضرائب الباهظة التى كان يقوم بسدادها وفاء بدين الرسالة .

وكان يقوم بكتابة البحوث اللغوية والأدبية ، ويقدمها فى لجان مجمع اللغة العربية . وتعد مراجع علمية وثيقة .

كما أشرف على إخراج المعجم الوسيط لأول مرة فى تاريخ المجمع ، وبالاشتراك مع بعض الأعضاء الذين كلفوا معه بهذه المهمة الكبرى .

وأشرف على لجنة المسابقات الأدبية التى يجريها المجمع بالاشتراك مع صديقه الدكتور مهدى علام عضو المجمع .

والفترة من عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٦٨ لم يقضها فى فراغ ، بل حاول أن يملأها بما لديه من طاقة جسدية ، وذهن مثابر ، وكدح عرف عنه واشتهر به .

فكتب مقالات جمعها فى كتابه « فى ضوء الرسالة » عام ١٩٦٣ .

وأعد بحوثاً إذاعية ضمنها المجلد الرابع من وحى الرسالة .

وأعد تقارير فنية وأدبية ولغوية نشرها فى دوريات ومجلة المجمع اللغوى .

ونشر قصصاً ومقالات فى كثير من المجلات العربية والإسلامية .

وكتب عنه الكثير من حملة الأقلام فى مختلف الصحف والمجلات ، كالأستاذ كرد على فى مجلة المجمع العلمى بدمشق ، وفى جريدة الأيام فى

---

(١) الأستاذ عمر الدسوقى .

سوريا ؛ وفى العراق كتب عنه : البلاد والزمان ومجلد الحاصد . وفى الكويت مجلة العربى وفى مصر كتب عنه كثيرون فى مقدمتهم العقاد وطه حسين والحكيم . .

ومقالاته فى ضوء الرسالة عن هذه الفترة من حياته بعضها مكرر كما فى مقاليه : « كيف كان الأزهر حصناً للغة العربية ؟ » إذ ورد مضمونه فى ص ٢٠٦ من وحى الرسالة جـ ٢ تحت عنوان « حاضر الأدب العربى » والمقال الآخر « محمد رسول الله أول من أعلن حقوق الإنسان » تكرر فى ص ٥ من وحى الرسالة جـ/ ٤ بعنوان « كيف أعلن محمد حقوق الإنسان؟ » .

وبعضها جديد تتردد فيه ذكريات عن الماضى كما فى « أول ما عرفت الأدب » و « كيف عرفت جورجى زيدان » و « أول ما عرفت الشنقيطى » . . . إلخ .

وفيه مباحث لغوية ودراسات فقهية تناولت : الواقعية والأدب وقصة الشعر المرسل . . . إلخ .

وفيه جديد ثورى أضافه إلى الصفحات الأخيرة من كتاب « وحى الرسالة » كما فى « الثورة الرابعة تتحقق » و « ٢٣ يوليو ١٩٦٢ » « وعصرنا الذهبى الرابع » .

ودعوات إصلاحية متصلة عن الأزهر والدين والإصلاح الاجتماعى فى محيط الريف والمدينة .

وتراجم شخصية لبعض أدباء مصر والعروبة كحافظ إبراهيم والبحترى وإبراهيم مصطفى .

وبالنظرة العجلى فى مضمون كتاب «فى ضوء الرسالة» نخلص إلى الحقائق التالية :

١ – ما جاء به من مقالات يعد امتداداً للخط الذى بدأه بالرسالة .

٢ – ليست فيه الروعة الأخاذة التى عرف بها الزيات ، وربما ورد بعضها فاتراً . أملته عليه المناسبة أو المشاركة .

٣ – بعض ما ورد فيه «كقصة نورا» كان يتحرج من الكتابة فيه من قبل ، ولما تقدمت به السن ، وانفسح المجال لم ير مانعاً يمنعه من معالجته فكتب فيه .

٤ – جاء ببعض ذكريات عن الجانب الثورى من حياته ، ولم يشر إلى هذا الجانب إلا فى المجلد الرابع من وحى الرسالة ، وأكمله فى ضوء الرسالة ، أما فى كتبه الأولى فإنه لم يشر إلى ثوريته من قريب أو من بعيد ، وأخيراً أفصح عن دوره فى ثورة ١٩١٩ وكتاباته السرية فى منشوراتها .

٥ – بعض الأفكار التى وردت فى ضوء الرسالة مكرر ونبهت عليه فى مواقف كثيرة وربما كان السبب فى التكرار أن الذى أعد الكتاب للطبع لم ينقحه ، أو يسلك فيه مسلك الزيات فى دقته .

٦ – كان الزيات يقدم لوحى الرسالة فى الغلاف الخارجى قائلاً :

«فصول فى الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص» .

أما فى ضوء الرسالة فقدم له بقوله : «ألوان من الأدب والتاريخ»

وهذا التقديم يدل على ضيق دائرة الكتاب الأخير وتقصيره عما جاء بالأول . كما يدل على قلة محصول الزيات فى الفترة الأخيرة من حياته .

ويؤيد هذه النظرة قول الدكتور طه حسين :

« ولما اتصل بمجلة الأزهر ، وتقدمت به السن ، كان أحياناً يجلس فى المجمع ، وينام وهو جالس » .

* * *

وقدم للمجمع بحوثاً ودراسات سأتعرض بالحديث لها فى الجزء المخصص لنشاطه فى مجمع اللغة العربية .

وقد نال جائزة الدولة عام (١٩٥٣) عن كتابه (وحى الرسالة) تقديراً لأدبه وفضله ومما جاء فى تقدير اللجنة للكتاب :

« أنه مقالات متفرقة فى مختلف شئون الثقافة والأدب ، يجمعها أنها تحمل طابع مذهب فنى واحد مثله المؤلف عملاً فى ضروب إنتاجه المختلفة ، ودافع عنه نظراً فى بعض كتاباته ، وعلى الأخص كتاب « دفاع عن البلاغة » ويقوم هذا المذهب على ركنين هما :

أولاً : العودة بالبلاغة العربية إلى طابعها العربى الأول الذى يتمثل فى نهج البلاغة وكتابات ابن المقفع والجاحظ وأضرابهما ، الذى يتجلى فى الإيجاز ورصانة الفواصل وقصرها ، وتصفية اللفظ .

ثانياً : تطعيم الفكر العربى الحديث آثار الفكر الأوربى ، وروائع الآداب الغربية عن طريق الترجمة ، وبذلك يساير الأدب العربى ركب الحضارة المعاصرة وقد أسهم المؤلف فى هذا بترجمته لبعض الآثار الغربية

مثل : ترجمة آلام فرتر ، فإذا ضممنا إلى هذا جهد المؤلف فى الدراسة الأدبية . وفى تاريخ الأدب العربى تجمع لنا من كل أولئك إنتاج جدير بالتقدير والإجازة » . (من محضر الجلسة السادسة ١٨/٦/١٩٥٣ لجنة جوائز الدولة للآداب) .

كما نال جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٢ وقال يوم تسلم هذه الجائزة التقديرية من الرئيس جمال عبد الناصر (رئيس الجمهورية)[1] .

« إن الأدب الذى تكرمه الليلة فى أهله ، قد بشر بك ، ومهد لك ، ودعا إليك . . ففى أغسطس من عام ١٩٣٥ قالت مجلة الرسالة :

. . . . وعلتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف ، ومن جنود القانون لا من جنود الأوامر » .

وفى أبريل من سنة ١٩٤٠ تنبأت الرسالة بالرجل المنتظر فقالت ما نصه :

إن للرجل الذى تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه . . . ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه ، ولأمته قبل أسرته ، ولإنسانيته بعد وطنيته . . إلخ اللهم إنا نسألك الراعى الذى يطرد الذئب ، والخيط الذى يجمع الحب ، والدليل الذى يحمل المصباح ، والقائد الذى يرفع العلم ، والأستاذ الذى يعلمنا أن نصنع الإبرة

(١) فى ضوء الرسالة ص ٣٣١ بعنوان « عصرنا الذهبى الرابع » ألقاها فى عيد العلم نيابة عن الفائزين .

والمدفع . . . وكل أولئك يا رباه يجمعهم رجل واحد هو أشبه الناس بالمهدى المنتظر والمسيح الموعود . . . » .

« ذلك يا سيدى الرئيس ، ما تنبأت به الرسالة قبل قيام ثورتك المباركة باثنتى عشرة سنة ، وقد صدقت النبوءة ، واستجيب الدعاء ، فهل كانت تنظر إليك بلحظ الغيب ؟ » .

قبل أن يقف الزيات وقفته هذه بسنوات طوال تنبأ لها ، وكتب عنها ، وطلب من الساسة فى عام ١٩٣٥ أن يكونوا من رجال الفعل ومن أرباب السيف ، ومن جنود الأمر ليكونوا بنائين عاملين لا قوالين متخاذلين .

كما كان يرجو أن يرى الرجل المنتظر بعلاماته ، وسماته ، وأقواله ، وأفعاله وعاش حتى رآه بعينى رأسه ، وكرمه ، وكرم فى شخصه العلم والعلماء .

وتلك حسنة من حسنات الزيات ، وشفافية عرفت بها طبيعته ، نظر إلى المستقبل وهو يعيش فى الحاضر ، ورسم لذلك المستقبل صورة لم تخطئ فى تقديراتها ، بل استجابت لها الأرض والسماء .

وكان فى عام ١٩٤٠ يوجه دعاءه لله يسأله جمع الشمل وصلاح الحال ، وبعد اثنتين وعشرين سنة يرى الأمنية قد صارت حقيقة ، ويرى الماضى ممثلاً فى برهان الحاضر أليس كل ذلك عنواناً على الصفا ، ودليلاً على صدق السريرة ، وانطلاقة بالخيال إلى حيث تتجلى أمام القلب مظاهر الحق والخير والجمال ! !

وفى أخريات أيامه ، كان يؤدى دوره فى مجلة الأزهر بنفس الهمة التى عرفت عنه ، وأحياناً يركن إلى «عزبته» التى أبدع نظامها ، وأكرم رجالها ، يبغى الراحة أو المتعة أو الاستشفاء .

وينعم بالقرب من أهلها ، الذين وهبهم عصارة قلبه ، ونتاج عقله ، ونبضات قلمه .

لم يداهمه مرض الروماتيزم الذى تخلص منه بالعلاج فى مستشفى حلوان ، ولم تعاوده آلام العين التى عالجها فى أسبانيا ، بل ظل محتفظاً برونقه وسمته وكماله حتى أخريات حياته .

فقبيل الوفاة كان يراجع صفحات من المعجم الكبير ، وليلتها كان يراجع آخر مقال نشره بمجلة الأزهر .

وفاته :

وفى يوم ١١ مايو ١٩٦٨ توقف القلب عن الخفقان ، وأسدل الستار على حياة حافلة ، وعلى كاتب جهير الصوت ، نابه الذكر .

* * *

وحزن أصدقاؤه وتلاميذه عليه ، وبكاه أهله ، واهتزت لنعيه منابر الخطابة والكتابة ، ورثاه القاصى والدانى ، وأقيمت لتأبينه ندوات واحتفالات .

رثاه المجمعيون فى يوم ١٩ من نوفمبر ١٩٦٨ بكلمة ضافية ، قدم لها الدكتور مهدى علام عضو المجمع ، وزميله فى لجنة الأدب ، وصديقه فى

معترك الحياة ، ومما قاله فى رثائه :

« لقد حدث أنه فى خلال الخمسة عشر عاماً الماضية ، أصيب الأدب العربى بخسارتين فادحتين : كانت أولاهما احتجاب الرسالة ، وكانت الثانية احتجاب الزيات .

وحين احتجبت الرسالة كان عزاؤنا بقاء صاحبها بيننا يواصل نشاطه الأدبى العظيم ، واليوم وقد احتجب عنا الزيات نجد بعض عزائنا فى بقاء الرسالة سجلاً أدبيًا وتاريخياً معاصراً لحركتنا الفكرية . . . بل نجد تلاميذ الرسالة الذين خطوا خطواتهم الأدبية الأولى على صفحاتها ، وقد أصبحوا اليوم من أعلام الفكر والقلم ، يواصلون رسالة الزيات فى خدمة اللغة والفكر والأدب » .

كما أقامت دار الأدباء حفلاً لتأبينه بدارها ، فى الذكرى الأولى لوفاته (يونية ١٩٦٩) . وتكلم فى هذا الحفل الأساتذة : عمر الدسوقى ومهدى علام وعباس خضر . . ومس كل منهم ناحية من نواحى الزيات : الأستاذ عمر الدسوقى تكلم عن أدب الزيات وأسلوبه والدكتور مهدى علام عن حياته وملامح أدبه والأستاذ عباس خضر عن الرسالة وعقب ، على المتحدثين نيابة عن الأسرة ابنه الدكتور علاء شاكراً ومقدراً وراجياً أن يظل تلاميذ الزيات حماة لأدبه ، وأن تظل كلمة العروبة هى العليا .

° ° °